

إِنْ بَاحْتِامَدٍ فَمَا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إِنْ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَإِنْ تَحْيَا لَوْجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَابٍ
وَتَحْيَا فِي دَائِرِ الْعُلُوفِ

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

يصدر هذا العدد الثالث من السنة الرابعة ، والبلاد في أفراحها السعيدة
بزفاف جلالة مليكها المحبوب . ففي كل مدينة مهرجان ، وفي كل دار عرس ،
وفي كل قلب طرب ، وفي كل نفس فرح ومسرة ، وعلى كل لسان شعر وهتاف ،
ولكل عاطفة نشوة ، وبكل جاثمة ولاء وحب !

وإنها لمناسبة سعيدة يشترك فيها الشعب بكل طبقاته في هذا الفرح ، معبراً
عن إخلاصه وولائه لفاروق العظيم . وإن لنا لمساعمة في هذا العرس الحاشد
لا تتسع لها هذه السطور المحدودة ؛ فننتقدم في هذه الفرصة بالتهنئة الموجزة إلى أكرم
عروضين ، لنفرد عدداً خاصاً من (الصحيفة) للاحتفال بهذا القران الميمون ،
فننشر به ما فاض على ألسنة أبناء دار العلوم في هذه المناسبة السعيدة من شعر
ونثر وأغاني وقصص

ونبتهل إلى الله أن يسعد الفاروق ويسعد به شعبه ، ويجعل عهده عهد رخاء

وأمن وسلام

السنة الرابعة (ذو القعدة سنة ١٣٥٦ هـ - يناير سنة ١٩٣٨ م) العدد الثالث

صحيفة دار العلوم

مجلة الأذيت واللغة والتربية والاجتماع

نصدرها جماع دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

رئيس التحرير

محمد علي مصطفى

المدير

محمد نجيب حياينة

للمراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلي

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي يوسى

المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوي

٢٠ قرشاً

٦ شلنات انجليزية

٥ قروش

في القطر المصري

خارج القطر

ثمان المئد

مطبعة الرسالة

عيد الاحسان

للساعر محمود حسن اسماعيل

درجت الجمعية الخيرية الإسلامية على إقامة مهرجان سنوى لتستعين بإيراده على
بعض ما تقوم به الجمعية من شئون البر ؛ وتشترك في هذا المهرجان مختلف الطوائف
وقد كان الخميس ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٧ هو يوم المهرجان في هذه السنة ،
وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول بتشريف حفلة الجمعية
التي أقامتها مساء ذلك اليوم بدار الأوبرا الملكية ؛ رعاية لهذه الجمعية ، وعطفاً على
أغراضها النبيلة ؛ وقد كان لأحد أبناء دار العلوم — وهو الشاعر محمود حسن
إسماعيل — شرف الشول بين يدي جلالته في تلك الليلة ، ليلقي قصيدة من شعره
في تحية جلالته ؛ وقد تفضل جلالة الملك المعظم فاستمع إليه ، وشجعه بكلمات
طيبة وعطف كريم . وهذه قصيدته :

نُورَان : نورُ هُدًى ونورُ تبسُّمٍ	سَطَعَا ، فراح الشَّعْرُ يَسْطَعُ من فمى
فَهْتَفْتُ : يا دنيا الملائكِ طهَّرى	وَرَى ، وَمِنْ آيَاتِ وَحْيِكَ أَلْهِمى
هَاتى لى النِّعَمَ الجَدِيدَ ، بغيرِهِ	ما اهْتَزَّ للشَّعْرَاءِ سَمْعُ الأَنْجَمِ
هَاتى فَإِنَّ بِمَرْشِ مِصْرَ مُمَلَّكَاً	تَاجُ العُصُورِ بِمِثْلِهِ لَمْ يَنْعَمْ
أَوْفَى فَرُحْتُ إِلَى الحَمَائِلِ هَاتِفاً :	هَاتى الشَّدَا من زَهْرِكَ المَتَبَسِّمِ
فُضِّى لِحَوْنِ الطَّيْرِ من لَهَوَاتِهَا	وُسْرى أَغَانِيهَا تَرِبَتْ بِمِرْقَمى
وَدَعَى الصَّبَاحَ ونورَهُ ، ودَعَى الضَّحَى	وعَبِيرَهُ يَنْسَابُ طَهْرًا فى دى
إِنِّى سَأَهْتَفُ لِلْمَلِكِ بِآيَةٍ	بِضَاءِ مِثْلِ جَبِينِهِ المَتَوَسِّمِ
مَوْلَاى ! فَاهْتَزَّ الوجودُ مَهْلَلاً	طَرَبًا ، وَإِنْ لَمْ يَشْدُ أَوْ يَتَكَلَّمِ
مَنْ رَامَ تَغْرِيدًا بِظِلِّكَ فليَكُنْ	لِبَلَابِلِ الخُلْدِ السَّوَاجِعِ يَنْتَمى

اللهُ أَكْبَرُ ! مَا لَمْ يَكْ هِرَّةٌ بِسَوَى حَمَامِ الْجَنَّةِ الْمُرْتَمِ !

« فاروق » جُكَّ في القلوب عقيدة
قَسَمَتْ مع الإيمان قُدْسَ مكانه
الشرقُ يقرأ في جبينك آية
النَّيْلُ فَسَرَّهَا لَهُ مُتَخَايلاً :
فيها عَزَاهُ الشَّرْقِ عن آلامه
اللهُ سَطَّرَهَا لِتَارِيخِ الْحَمَى
أَخَذَتْ سُرَاهَا في القلوبِ مع الدَّمِ
في الروح ، وهو لغيرها لم يُقَسَمِ
فَجَرُّ الرِّبْعِ بنورها لم يُوسَمِ
هَذِي مَنَارَةٌ كُلُّ قَلْبٍ مُظْلَمِ
وَمُنَاهُ بَعْدَ أَسَى وَطُولِ تَجَنُّمِ
بُشْرَى وَثُوبٍ لِلْعَلَا وَتَقَدُّمِ !

يَا عَاهِلَ الْإِسْلَامِ كَرَّمْ عَصْرَهُ
أَلْقَتْ إِلَيْكَ يَدُ الْخَنيفِ زِمَامَهَا
وَبَعَثَتْ عَهْدَ الرَّاشِدِينَ بِصَوْلَةٍ
فَرَعَيْتَ عَنْهُ الصَّوْلَجَانَ وَمَجْدَهُ
وَحَمَلَتْ مَسْبَحَةَ كَأَنَّ مَدَارَهَا
حَبَّاتُهَا فَلَذُ القلوبِ خَوَاشِمَا
نَسَقَ مِنْ الْمُلْكِ انْقَرَضَتْ بَعِزُّهُ
وَأَنزَلَ بِهِ حَلَّكَ الْوُجُودِ الْمُعْتَمِ
فَأَقْلَتْ عَثْرَتَهَا ، وَقَلَتْ لَهَا اسْلَمِي !
شَرَعُ السَّاءِ بِهَا حَدِيدُ الْمُعْصَمِ
وَحَظَرَتْ فِي وَرَعِ النَّبِيِّ الْمَلِئَمِ
فَلَقَّ الْهَدَى لِلْحَائِرِ الْمَتَبَرِّمِ
عَطَّلِينَ بِاللَّتَامِ آمَالَ الْقَمِ
لِسَوَاكِ فِي التَّارِيخِ لَمْ يَتَقَدَّمِ

فِي دَوْلَةِ الْإِحْسَانِ قَامَتْ عُصْبَةٌ
تَأْسُو إِذَا جَرَحَ الزَّمَانُ ، وَتَنْبَرِي
كَمْ تَأْكُلِي رَدَّتْ فَوَاجِعَ قَلْبِهَا
سِتَارَةُ الْأَعْرَاضِ يَغْمُرُ جُودَهَا
لِلْخَيْرِ فِي جَنَابَاتِ عَرَشِكَ تَحْتَمِي
قَدْرًا يُكَفِّكَ دَمْعَةَ الْمُتَيْمِّمِ
نِعْمًا ، وَأُسْبَغَتْ النِّعَمَ لِأَيِّمِ
لَيْلَ الْحَرَائِرِ فِي بَيَاضِ الْأَنْعَمِ

وَتَرَاهَا لِلْمُعْوزِينَ غَرَائِيسَ — لِقَمَاتٍ ، تَشِيرُ فِي خَرِيفِ الْمَعْدَمِ !
 تُعْطِي وَلَا مَنْ يَشُوبُ عَطَاءَهَا — وَتَجُودُ جُودَ الْعَدْلِ لِلْمَنْتَظِمِ
 مِنْ تَدَبُّ إِلَى النُّفُوسِ خَفِيَّةٍ — يَجْرِي بِهَا قَدَرُ الْإِلَهِ الْمُنَمِّ
 فَكَانَهَا الْأَحْلَامُ تَهْبِطُ فِي الدَّجَى — لِلْبَائِسِينَ بِخَشْمَةٍ وَتَحَرِّمِ
 شَرَفُ الْعَطَايَا أَنْ تَزُفَ وَحِيدَةً — كَالسَّرِّ بَيْنَ تَخَفُّرٍ وَتَحَشُّمِ !
 هِيَ كَعْبَةٌ — لِلْبُؤْسِ مِنْ إِحْسَانِهَا — بِشَرِّ النَّبَاتِ بِغَيْثِهِ الْمُرَحِّمِ
 لِلْعِلْمِ فِي أَكْنَافِهَا رِيَّ النَّهْيِ — وَلَشَكْوَةِ الْعِلَالِ بُرْهَ الْمُسْتَقِيمِ
 مَوْلَايَ أَسْعِدْهَا بِنُورِكَ إِنِّهَا — بِهَذَاكَ تَقَرَّعُ سَابِحَاتِ الْأَنْجَمِ
 هَمِّ سَبَقِ خَطَى الزَّمَانِ بِعِزْمَةٍ — أَوْ قَدَّتْهَا سَبَقَ الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ
 هَتَفَتْ بِكَ الدُّنْيَا فَرَدَّ هُتَافَهَا — شَعْبٌ يُفَدِّي بِالْقُلُوبِ وَالْدَّمِ !

محمود حسن اسماعيل

في النقد الأدبي

IMAGINATION الخيال في الأدب

لـمـرّـتـاز أـصـمـد السـابـي

المدرس بكلية الآداب

تعريفه — أقسامه — صلته بالأدب والعلم — مقاييسه النقدية

— ١ —

رأينا فيما سبق أن الماطفة هي المُنصر الأدبي الأول ، إذ كانت سببَ خلود الأدب ، وفارقته من العلم ، وأدلَّ على شخصية الأديب . ثم قلنا : إن الماطفة التي نحكم عليها بالصدق أو القوة أو السمو هي الماطفة التي يثيرها الأديب في نفوسنا نحن القراء أو السامعين لأن نفوسنا هي مظهر تأثيره الأدبي ، وإليها تنتهي هذه الجهود الأدبية شعراً كانت أو نثراً

والآن ، نسأل هذا السؤال : كيف يستطيع الشاعر أو الناثر أن يثير في نفوسنا هذه الماطفة الأدبية ؟ كيف يستطيع المحب أن يبعث في نفوسنا الشوق والجوى ؟ وكيف يمكن الحزين أن يوقظ الأسى والحسرة بين جوانحنا ؟ وكيف يلهب الحماسي نار الغضب والكرامة في قرائه أو سامعيه ؟

أيستطيع أحدهم إثارة الماطفة بمجرد أن يدَّعيها أو أن يذكر اسمها أمامنا ؟ لا ، ليس هذا من طبيعة الفن الأدبي في أصله ، وإلا كان جميع الناس أدباء . أيمن هذا بدراسة العواطف وتحليلها ؟ لا فذلك من علم النفس ، وهو أسلوب يصل بصاحبه إلى المعرفة ليس غير ، شأنه في ذلك شأن دارس النبات أو الحيوان كلهم يتناول مسائل علمية موضوعية لا دخل فيها للأدب ولا للفنون جميعاً بهذا الأسلوب . وإذا ، فكيف تُبعث الماطفة في نفوس الآخرين ؟

الطريقة الطبيعية التي يسلكها الأديب مع قرائه وسامعيه هي نفس الطريقة التي يسلكها مع نفسه أو سلكتها معه الحياة . وذلك أن الشاعر — مثلاً — أمام

موت صديق أو عظيم ، وهذا الموت سيّء الآثار ، شديد الوقع ، متنوع المظاهر الأليمة ... حتى كانت النتيجة أن حزن هذا الشاعر . وهنا نقول : إن عاطفة الحزن نارت في نفس الشاعر بسبب ما شهد حوله في هذه الحياة ... ويريد هذا الشاعر بدوره أن يشير في نفوسنا عاطفة حزينة تشبه الماطفة التي في نفسه ... فإذا يفمل ؟ هو بين اثنتين : إما أن يأخذ بيدنا ويعرض على بصرنا وسمعنا ما رأى وسمع ، وفي هذه الحال يكون حكمنا حكمه ... ولكن هذا العمل ليس فناً أدبياً فلنتركه ، وإما أنه يعتمد إلى اللغة أو الأدب فيثقل — بوساطته — إلينا هذه الصور التي شهدناها وأحسبها . فإذا نحن قرأناها مصوّرة في شعره حزننا حزن الشاعر وشاركناه في شعوره . وحينئذ يكون الشاعر قد أثار عاطفة الحزن في نفوسنا .

هذا الشاعر هو البحتري في رثاء المتوكل على الله :

محلّ على (القاطول) أخلق دارّة وعادت صروف الدهر جيشاً تناوره
 كأن الصبا تُوفى نذورا إذا انبرت تراوحه أذيالها وتباكره
 ورب زمان ناعم ثمّ ، عهدّه ترق حواشيه ، ويورق ناضره
 إذا نحن زُرناه أجد لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يهيج زائره
 تفكير حسن الجعفرى وأنسه وقوض بادي الجعفرى وحاضره
 تحمّل عنه ساكنوه فجاءه فمادت سواء دوره ومقابره

ماذا فعل البحتري ؟ لم يذكر الميت إلى الآن . ولم يزعم الحزن بهتاناً وكذباً ولم يأمرنا به ، وإنما عمد إلى طريقة التصوير أو الرسم واستخدمها في شعره وصفاً فعرض علينا آثار الموت ، ومظاهر الخراب ، ووازن بين عهدى الحياة والموت ثم تركنا — بعد عرض هذه الصور — وشأننا ، ولا شك أن شأننا هنا هو الحزن لا غيره . وسبب هذا أنه أشهدنا أسباب حزنه هو لتجعلنا نشاركه في هذا الشعور . ومثله في هذا مثل من يعرض عليك لوحة رسمت عليها آثار الزلازل وويلات الحروب ؛ ليشير في نفسك بنفخ الحرب ومحبة السلام . ويسير البحتري سيرته المثلى حتى ينتهي إلى قوله :

ولم أنس وحش القصر إذ ربيع سرّه وإذا دُعرت أطلاؤه وجآذره

وإذ صيغَ فيه بالرحيل فهتكت - على عَجَل أَسْتارُه وسَتارُه
هذه القوة ، وهي مشاهدة الأشياء ، ثم تصويرها لنا بمثل هذا الشعر تصويراً
كأنه أمر حقيق . هي التي تسمى الخيال

- ٣ -

أستطيع هنا - رغبة في الإيجاز - أن أترك لعم النفس هذه التعاريف
وكثرة الأقسام التي يذكرها للخيال أو التصور وما يتصل بهما . وإنما أقف عند
نوعين مشهورين للخيال : أحدهما الخيال الابتكاري أو الخالق ، والثاني يسمى
الخيال التصويري أو التفسيري . فهذان النوعان ألصق الأنواع بفن الأدب
وأكثرهما دوراً على الألسنة

يلاحظ الإنسان أشياء كثيرة ، ويلم بمعارف شتى تخزن في نفسه لحين
الحاجة إليها . فإذا ما عرّضت له مناسبة ما ، أَلَف منها صورة تصوّرية تلامم
ما ينبغي من إيضاح أو تأثير ، وأبسط الأمثلة لهذا النوع أن يتصور الإنسان
مخلوقاً له رأس الإنسان وجسم الأسد أو عكس ذلك ، فهذه الصورة الخيالية غير
موجودة عادة ، ولكن عناصرها الفردية موجودة يشهدها الإنسان ، ويلم بها
كل يوم تقريباً ، فالخيال المبتكر هو الذي يختار من العناصر المختزنة مجموعة يؤلف
منها صورة جديدة . وليس مثل هذا هو ما ينفيه الأدب ، وإنما نجد المظهر الرائع
لهذا النوع عند ما يبتكر الروائي أو الممثل شخصية طريفة يجمع فيها صفات
الكمال المثالي الذي يُتخيل ولا يتحقق ، أو صفات النقص الوضع الذي لا يراه
الرأي ممثلاً كله في كائن حي ! أو صفات الفكاهة والسخرية الغريبة ، هذا النوع
تتوقف مكانته على الصور المخزونة عند الأدب ، وعلى مثله التي تصورها ، وعلى
براعته في حسن تأليفها . يقول رسكن Ruskin في حديثه عن الشعراء والرسميين :
« إن كلا من الشاعر والرسام يلتقط في ذاكرته كل ما رأى وسمع طول حياته ،
ويحفظه بالدقة كما تُحفظ الأشياء في الخازن الكبيرة ، فالشاعر لا ينسى أنفه
أنعام المقاطع التي سمعها في بداءة عمره ، والرسام لا ينسى حتى أدق طبّيات الأقمشة

وأشكال الأوراق والأحجار ، وفي كل هذه المعارف المتنوعة غير المحدودة يهيم الخيال . فيستخرج منها في أى وقت شاء مجموعات من الآراء ، والأغراض ، أو الصور المتناسبة المنسقة الدقيقة »

هذا النوع الابتكارى هو عمدة الراوى والممثل ، وهو من خواص هذه الفنون الممتازة الحديثة للأدب الأوربية . وعندى أن الأدب العربى القديم لم يحفظ بهذا النوع إلا إذا لحظنا مسألتين : الأولى هذه الصور التى تراها فى القصص ، والتى تمثل لنا إنساناً طويلاً يأخذ السمكة بيده من البحر ويشويها على الشمس ، أو بطلاً يقتل بضربة واحدة مائة رجل ونحو ذلك . الثانية ما تُضفيهِ المدائح والأهاجى على الرجال من أمثلة الكرم والجود والنجاعة ، أو اللؤم والذلة والبخل ؛ وهى صفات لا تتمثل فى رجل تمثيلاً واقعياً . على أن ذلك الثانى لم يبلغ فى النضج ما يراه المحدثون مثلاً لهذه الشخصيات المبكرة

وأما النوع الثانى فهو الجدير بالوقوف عنده لأنه خيال الأدب العربى الممتاز ، وطابعه الشائع ؛ وهو ما وجدت مثاله عند البحترى كما أسلفنا

فلنعرف أولاً كيف نشأ ، وما سر وجوده ؟ لاحظنا فى رثاء البحترى لجوءه إلى الخيال ليستطيع تصوير عاطفته أولاً ، ثم إثارة مثلها فى نفوسنا ثانياً . وسبب هذا الاضطراب أن اللغة الحقيقية التى تراها فى المعاجم إنما وجدت للتعبير عن الأفكار والحقائق العقلية والعلمية فقد وضعت بإزائها ، فهى لذلك تعجز عن أداء العواطف والانفعالات . إذ أن هذه قوة بطبيعتها تسمو على مستوى الحقائق والعقليات الخالصة ، فحينما تسيطر على الأديب عاطفة يحب التعبير عنها يشعر بعجز هذه اللغة الحقيقية ، فيلجأ — بتأثير الخيال — إلى خلق لغة أخرى تلائم آثار العاطفة فى نفسه وقوتها ؛ فنراه يشبه الماء بالفضة ، والبستان بالفردوس ، والشجاع بالأسد ؛ وأحياناً يترك التشبيه إلى الاستعارة لأنها أقوى ، وآخر الأمر يستخدم الكناية

نحن أمام لغة جديدة لا تقوم على كلمات مفردة ، أو تراكيب إسنادية عادية

بل تجمع بين التشابهات ، أو التناقضات ، أو التناسبات ... لماذا ؟ لأن الماء مثلاً — لصفائه — لم يبق في نظر الأديب ذلك الماء المعروف لنا ، وإنما ارتقى في نظره درجة ، فصار من حقه على هذا الشاعر أن يصلة بالفضة ، وهكذا الشأن في الشجاع ، والوجه الجليل ، والقوام اللدن ، والضمير الحى ، والعزيمة الماضية ... كلها في حاجة إلى هذه اللغة البيانية التى تلائم ما فيها من قوة وجمال . ولأذكر مثلاً آخر لهذا النوع التصويرى ، أو التفسيري ، أو الوصفى ، قول ابن خفاجة يصف فرساً أشقر فى حرب :

وَمُطَهَّمٌ شَرَقِ الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا أَلْفَتْ مَاطِفُهُ النَّجِيعَ خَضَابًا
طَرِبَتْ إِذَا غَنَى الْحَسَامُ مَمَزَّقٌ ثَوْبَ الْمَجَاجَةِ جَيْشَةً وَذَهَابًا
قَدَحَتْ يَدُ الْهَيْجَاءِ مِنْهُ بَارِقًا مُتَلَهَّبًا يُزْجِي الْقَتَامَ سَحَابًا
وَرَمَى الْحِفَافُ بِهِ شَيَاطِينَ الْعِدَى فَانْقَضَ فِي لَيْلِ الْغُبَارِ شَهَابًا
بَسَامُ ثَمَرِ الْحَلَى تَحْسَبُ أَنَّهُ كَأَنَّ أَثَارَهُ بِهَا الْمِزَاجُ حَبَابًا
فالفرس هنا ذو صور شتى ، كل منها تلائم صفة من صفاته المتصورة ، فهو مرة فرح بما يكسوه من دم الطمان حتى كأنه خضاب سرور ، وأخرى إنسان يطرب لغناء الحسام — وغناؤه ضربه الشديد — ثم يمزق ثوب الغبار ذاهباً جائياً وثالثة تراه برقاً متلهباً يُزجى هذا الغبار الشبيه بالسحاب ، ورابعة هو شهاب ينقض على الأعداء ليصمقهم ، وأخيراً ترى حليه — ما يزين سرجه ولجامه — متألّفاً كالكَأْسِ علاها الجباب

كل صورة من تلك الصور تصلح وحدها مثلاً لهذا الخيال التصويرى ، مثلاً يقول : طَرِبَتْ إِذَا غَنَى الْحَسَامُ . نجد نشاط الفرس وثباته فى الحركة يصور أو يفسر تفسيراً راقياً جميلاً ، يفسر بالطرب ، لأن الطرب إنما يكون عن سرور ورجبة ، فالفرس ليس مقسوراً على هذا الموقف وإنما هو مدفوع إليه بحض الرضا والولوع ، وكذلك باقى الصور الموزعة بين التشبيه والاستمارة

ما طبيعة هذا الخيال ووظيفته ؟ هذا النوع ليس ابتكار مجموعات جديدة ، وإنما هو الوقوف عند الشيء الموصوف للتعبير عن مفزاه الحقيقى أو عن قيمته الروحية . ونعود إلى شرح ذلك ، هب أنك واقف أمام النيل ، فماذا ترى ؟ لاشئ سوى هذه السفن الغادية الرائحة ، والماء الجارى ، والأشجار الباسقة ؛ والبيوت الشائخة ، وهي أشياء مألوفة يراها أقل الناس ويراها الحيوان ، إلا أن ما يراه أحدهما لا يتجاوز الحس إلى المعنى ، ولا يمدو هذه الأحجام والألوان والحركات ولكنك - بقوة الخيال - تتعمق إلى ما وراء موقع العين أو الأذن ، فتدرك الأزل القديم ، والتاريخ المسطور فى مجراه ، والهدوء الرتيب أو الجلال الخالد ، وتسمع ضحكات كليوباترة ، وجدال موسى وفرعون ، وترى العرب يملكون الوادى ، والمصريين يطلبون الاستقلال . كل تلك المعانى من نتاج هذا الخيال الذى يبعث عاطفة الاجلال أو الإعجاب فى نفسك ، فإذا شئت تصويرها عمدت إلى لغة هذا الخيال فىنشأ فن الوصف الأدبى ، وليس من المذر هذه الصور ، فانها عند العقلاء والأدباء المعنى الحقيقى لمظاهر الحياة ، طبيعة كانت أو إنسانية الفائدة الأولى لهذا الخيال أنه عماد الوصف الأدبى ؟ وهنا نذكر أن هناك ما يسمى الوصف العلمى أو الحسى ويقوم على الواقع المحسوس فىستخدم الأرقام والمقاييس ، والأحجام ، والأبعاد ، لأن صاحبه عالم أو مهندس معمارى يفهم الأشياء من جسمها وأعضائها ، وأما ما نريده هنا فهو الوصف الأدبى الذى يتجاوز هذه المظاهر أو يفنرها غير غابى بهذه التفاصيل والدقائق التى لا تفسر شيئاً من سر الطبيعة أو الصناعة ، وقد سبق كلام فى ذلك ثم رأيت مثاله منذ حين فلنتركه وفائدة أخرى لهذا الخيال الوصفى أو الوصف الخيالى ، أنه يصور لنا الأشياء صوراً أجمل من صورها المشاهدة الحسية ، فقد نقرأ وصف الحديقة ، أو الزهرة ، أو الفتاة ، فنجد أجمل منها جميعاً ، وذلك واضح طبى ، لأن الوصف الذى نراه فى الشعر أو النثر ، يجمع شيئين . (١) الشئ الموصوف الذى يشهده كل الناس

(٢) ثم تفسيره أو سره المستور . وقد يعبر النقاد عن ذلك بمباراة أخرى كقولهم : إننا نرى الأشياء من خلال عين الأديب الوصف . وكقولهم : إن الوصف الأدبي يكمل نقص الطبيعة أو يزيل سذاجتها ويكشف سرها .

وإماماً لهذه الناحية نذكر أن هذا الوصف الأدبي — بسبب اعتماده على الخيال — يتوقف على مزاج الأديب وطبيعته ، لأن هذه الطبيعة تلون المشاهد بلونها غضباً ورضاً ، وبهجة وحزنًا ، حتى إنك لترى عجباً في ذلك ، فالشعراء يختلفون في تصوير الشيء الواحد تبعاً لأمزجتهم ، والشاعر الواحد يصور الشيء الواحد صورتين مختلفتين ، في وقتين مختلفين تبعاً لتغير مزاجه ، أو وجهة نظره ؛ فشوقي المالم الهادي يقول :

فدع كل طائفة للزمان فإن الزمان يُقيم الصمر

وشوقي المستأسد يقول :

دُنياك من عاداتها ألا تكون لأعزل

والشيب في رأي المعري :

والشيب أزهار الشباب فما له يخفي ، وحسن الروض في الأزهار

وهو عند الشريف الرضي :

قلت : ما أُن من على الرأس منه صارمُ الحد في يد الأيام ؟

ومجد ابن خفاجة يصف الشجرة النورة فيراها مرة :

لفاء حاك لها الغمام مُلأة لبست بها حسناً قميص صباح

وهو نفسه يقول فيها مرة ثانية :

حطَّ الربيعُ قناعها عن مفريق شَمِط كما ترتدُّ كأسُ الراح

— ٤ —

ليس الوصف وحده محتاجاً إلى الخيال ، فإن الرسائل ، والخطب ، والمقامات ، والروايات ، تعتمد عليه اعتماداً واضحاً لا يحتاج إلى إيضاح . وهنا أقف عند باين أو فنين من الفنون الأدبية العامة لأنّين صلتهما بالخيال ، هما : التاريخ ، والنقد

الأدبي . لا يستغنى المؤرخ عن الخيال إذا شاء أن يكون تاريخه قبيهاً ثم جيلان .
 ليس التاريخ جمع الحقائق وسردّها في هذه المؤلفات الضخمة ، وإنما هو إحياء
 هذه العصور الماضية من جديد إحياء يتناولها من نواحيها جميعاً ، وهذا الإحياء
 لا يقوم إلا بمساعدة الخيال . لا بد من تصوير البيئات القديمة ومقاييسها السياسية
 والاجتماعية والفنية . وطرق تصورها الأشياء ، لفهم ما يُسنى روح العصور
 التاريخية ، هذا من الناحية الأولى . ثم يجب تصور هؤلاء الرجال والنساء تصوراً
 قائماً على أمرجتهن ، وآمالهن ، ومواهبهن ليُعرضوا علينا كأنهم أحياء أمامنا
 يفكرون ، ويخالون ، ويعملون متأثرين بهذه البيئات التي احتوتهم ، وليس مؤرخاً
 ذلك الذي لا يدرك الفروق بين العصور المختلفة أو بين شخصياتها العديدة ...
 وليس من شك في أن الخيال قد يضلّل المؤرخ حينما يبالغ في تصور الوقائع ،
 أو الأشخاص ، متجاوزاً الحقائق الواقعة سياسية أو اجتماعية فينسلخ بذلك عن
 التاريخ إلى فن أدبي آخر هو القصة Epic . والأجدر أن يجعل المؤرخ حقائقه
 صلب عمله ثم يلبسها من خياله روحاً يهب لها الحياة ، ويميدها سيرتها الأولى ،
 ويكسبها جمالاً أدبياً تكون به شقيقة خالدة . وإذا فليس كتاب ابن الأثير مثلاً
 تاريخاً ، بل مرجعاً لحوادث التاريخ وحكايتها ، أو سجلاً يرجع إليه طلاب
 القصص التاريخي .

والناقد إذا أراد أن يكون أدبياً وجب عليه أن يضيف إلى أصول النقد الأدبي
 عنصر الخيال الخاص به ليقوم بشيئين اثنين : إدراك شخصية النقاد وبيئته ، ثم
 فهم أدبه فهماً صحيحاً وموازنه بغيره ؛ وبذلك يكون نقده وديباً غير عصبي أولاً ،
 وإيضاحاً ثانياً . فحين أدرس المتنبي يجب أن أتصور نزعة الطامحة ، وبيئته غير
 المسعفة لأستطيع فهم شعره على هذا الأساس فلا تغرب عندي شكايته وسخريته
 وحماسته ، ويكون موقفي منه موقف الشارح الموضح لفنه وبواعثه ، وأخيراً
 أستطيع الإنصاف في نقده وتقديره . أي شيء يصل بيننا وبين روح العصور
 الماضية غير الخيال ؟

— ٥ —

ليس الخيال نافعا في الأدب وحده ، بل يتدخل في معارفنا وعلومنا كذلك .
أليست معارفنا الأولى مكونة من المشاهد الحسية الخالصة ؟ بلى ، فإذا ما قرأنا فيها
بعد وصفاً لأشياء أخرى لم نرها استمنا على تصويرها بهذه الصور الحسية الأولى
تناسها أو تناقضها . على أن فهم الكلمات اللغوية يقوم في ذهننا على تكوين صور
لمعاني هذه الكلمات ، وهي صور صحيحة على الرغم من إبهامها أو نقصها أحياناً .
والخيال من وسائل التربية الحديثة يعتمد عليه المربون في دراسة التاريخ والرسم ،
وعمل النماذج وغير ذلك

والخيال العلمى ، ما هو ؟ عملية تقوم على فروض يمكن أن تأتى بنتائجها
الخاصة ، فحينما وجد الرجل البخار وقوته تخيل صورة وضعه فى أنابيب وتسلطه
— مثلاً — على آلات يديرها فتكون الحركة ، والسرعة ، والصناعة ، والقوة ،
وهكذا . والفرق الجوهرى بين الخيال العلمى أو العلمى وبين الخيال الأدبى : أن
الأول نتيجة لدافع عقلى . والثانى نتيجة للماطفة ، وكلاهما فى الحقيقة متعة للنفس ،
مرة لتأحياتها العقلية ، وأخرى لتأحياتها الوجدانية أو العاطفية ، وليس فى استطاعة
منصف أن يفصل بينهما مطلقاً إلا إذا استطاع الفصل بين مظاهر الشعور النفسى
وتزيين المواهب الانسانية . هل تحليل الزهرة إلى عناصرها يذهب بجمال سحرها ،
وتألف ألوانها ، وعميق وحيها ؟ ! قد يقلل من ذلك ولكنه لا يحجوه

— ٦ —

وأخيراً ، كيف نحكم على الخيال ؟ وما مقاييسه الفنية ؟
أما الخيال الابتكاري — وهو لا يعنينى هنا كثيراً — فيقاس بمقدار هذه
الصورة المتكررة من حيث تصويرها للصفات المراد تصويرها بطولة أو بلاهة أو
سمواً أو ضمة ، ثم بمقدار ملاءمتها لباقي الشخصيات الروائية الأخرى ، فكما
كانت الصورة طريفة ، قوية ، مستكدة خواص البطولة ، حسنة الانصال بسواها ،
كانت جيدة وإلا تعرضت للظمن والتجريح

وأما الخيال التصويري فأحب أن ألفت النظر بالنسبة له إلى أنه معروف عندنا في علوم البلاغة تحت عنوان علم البيان وبعض البديع ، ومن يدرس التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، وحسن التعليل ، والمتمثيل مثلاً ، يكون قد درس بعض وسائل الخيال التصويري .

وبناء على ذلك نستطيع أن نضع لهذا النوع مقياسين اثنين :

أحدهما : عام يقوم على درجة تصوير الخيال للماطفة عمقاً ، وجمالاً ، وقوة ، وسمواً . فإذا شمرنا بأن الماطفة التي أثارها الخيال محقة لهذه المقاييس التي شرحتها قبل الآن ، حكمنا أولاً للماطفة ، ثم أردفنا ذلك بالحكم للخيال . وأما إذا وجدنا فتوراً في الماطفة فإننا يبرّض من أن نهملها جميعاً ، مادام بينهما اتصال دقيق متبادل يسير طرداً وعكساً

والثاني مقياس خاص أو هو تفصيلي يقوم على حسن التشبيه والمتمثيل وعلى جودة الاستعارة ، وعلى درجة الكناية ، وذلك كله مفصل في كتب البلاغة العربية لا أجدني محتاجاً إلى تكراره هنا

أحمد الشايب

أسس الإصلاح في دار العلوم

للكنوز على العناني

الأستاذ بدار العلوم

نمبر

يرتكز النهوض والرقى في الأمم على النهوض والرقى في المعارف والعلوم والعقلية المهذبة الناجمة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتكوين العلم الصالح والنهوض بالتعليم ؛ ولذلك كانت العناية بأمر المعلمين هي الأساس الأول الذي تركز عليه مقومات الحياة الراقية والاجتماع الصالح لدى كل أمة تريد الرقى وتعمل للنهوض . وقد توفقت مصر من فجر نهضتها الحديثة إلى ذلك ، فأنشأت المعلمين دار العلوم ومدرسة المعلمين ؛ وقد أدى هذان المهدان رسالتهما على أكمل وجه وأسمى غاية بالنسبة إلى مقتضيات الأحوال ومطالب الزمن ، واستمررا على ذلك عهداً غير قصير ؛ ولقد حدث أخيراً أن تطورت العقليات وزادت مطالب الزمن وهذان المهدان يتقدمان في أداء مهمتهما ولكن بنسبة لا تسير تماماً كل ما تتطلبه الحاجة من النهوض بالمعلمين والتعليم والحياة العقلية في البلاد ؛ وعلى الأخص في استكمال ما لا يزال بعيداً عن لغتنا ، وفي الوقوف على كل جديد من عقليات الأمم الناهضة منتجة المدنية الحديثة الحاكمة الآن في كل الشعوب ؛ وكان من أثر ذلك أن نهضت عقليتنا بما أوتينا من الاطلاع على معارف الأمم الراقية مع تحواف المعلمين التخرجين في دار العلوم عند ما كانت عليه من قبل ، وبحوويل مدرسة المعلمين إلى معهد ليس من الطبيعى أن يقوم بتكوين المعلمين ، وعدم إمكان تحويل كلية اللغة في الأزهر أو كلية الآداب في الجامعة إلى الاختصاص بتخريج المعلمين مع أنها تتزاحم في هذا السبيل .

ولقد نشأ عن ذلك حالة شاذة ، وهي تزاحم كلية اللغة الأزهرية وكلية الآداب

ومعهد التربية على الاستئثار بدار العلوم باندماجها في إحدى هذه الجهات مما يخالف الوضع الطبيعي ولا يحقق الغرض من تكوين المعلم الصالح القادر على أداء رسالته طبقاً لحاجة الوقت ووفقاً لطبيعة الزمن والتطور العقلي الحديث .

والعمل الطبيعي الضروري الآن إزاء هذه الحالة هو الإسراع بالإصلاح العاجل في تكوين المعلمين في بيئة خاصة بالمعلمين ، تستكمل فيها تربية المعلم كل ما لا يتيسر لها طبيعياً وهي محاولة على أية جهة أخرى ليست محل اختصاص لذلك .

والمعهد الوحيد الذي له هذا الاختصاص إنما هو دار العلوم ، والحالة الحاضرة الآن — بالنسبة إلى ما وصلت إليه عقليتنا ودرجة الرقي في التعليم عندنا وتختلف دار العلوم وهي المعهد الوحيد الصالح لتكوين المعلمين عن الاضطلاع الكامل بشؤون تلك العقلية وعن القدرة الكاملة على مسابقة هذا الرقي الحديث في التعليم — فيستدعى العلاج العاجل في انتشال دار العلوم من تخلفها الحالي من أن تؤدي للتعليم واجبها في إعداد المعلمين القادرين على حمل أعباء التعليم من كل الوجوه والسير به إلى الأمام في رقيه المطرد وخدمة العلم المستمرة في طلب المزيد .

هذا العلاج الوحيد المطلوب يمكننا أن نعبئ عنه باسم (إصلاح دار العلوم) وأن نذكره فيما يلي بهذا التعبير ؛ وأذن سبيل لضمان النجاح في هذا الإصلاح وتحقيق الغرض منه إنما هو تركيزه على أسسه الطبيعية المرتبطة بالسبب الباث عليه والمحقة للغرض المطلوب منه ؛ وبما أن إدارة الدار قد كونت لجاناً من هيئة التدريس بها للنظر في مسائل هذا الإصلاح وتمحيص نواحي الصواب فيها واختيار المفيد مما يتفق بها فإني قد راجعتها ووجدت أنها في فروع لا تتصل بأصول توحيد وجهات النظر بين أعضاء كل لجنة من جهة وبين قرارات اللجان من جهة أخرى مما تشعب معه المناقشة ، ويصح أن تنبؤ بعض نتائجها أو كلها عن الصواب وأن يحدث اختلاف في تقارير اللجان ؛ لذلك رأيت أن أدلى برأيي مجمل في سبب الإصلاح بدار العلوم والغرض المقصود منه والأسس الضرورية التي يرتبط بها كل فروع هذا الإصلاح في جميع نواحيه ، وأن أدون هذا الرأي لسهولة الاطلاع عليه .

سبب الإصلاح والفرصة منه

اتضح لنا من الإجمال التمهيدى السابق أن تكوين المعلمين يجب أن يكون في بيئة خاصة ؛ وقد كانت هذه البيئة منحصرة في دار العلوم والمعلمين العليا ؛ والثانية قد تحولت إلى معهد للتربية ، ففقدت بذلك اختصاصها وبقيت دار العلوم وحدها متمتعة بهذا الاختصاص ؛ غير أن دار العلوم على ما بها من رقي في الثقافة الدينية والأدبية اللغوية قد أصبحت الآن لا تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل لحرمان أبنائها من تعلم لغة أجنبية حية تمنحهم المرجع الجامع للثقافة الحديثة المؤهلة إلى الوصول إلى كل ما يحتاجه التعليم وما يمكن المعلم الباحث من خدمة المعارف والعلوم .

هذا ولا شك نقص كبير في الدار وفي أبنائها يجب تلافيه وسبب أساسى للإصلاح فيها مع ما يتبعه من الأسباب الثانوية التى لا حاجة إلى ذكرها في هذا الإجمال .

وإصلاح الدار لهذا السبب الأساسى وما يتبعه من أسباب ثانوية إنما يكون لغرض ضرورى هو تكوين المعلم الصالح بها تكون بنا يكون به قادراً على الانضطلاع بمهمة التعليم بما يتناسب مع طبيعة الوقت ودرجة الرقي العلمى الحديث ، ويساعد على خدمة العلم ورفع مستوى العقيلة المصرية إلى ما يجب أن تكون عليه الآن وفي المستقبل القريب والبعيد .

إذا نحن قد تبين لنا ذلك وأدعنا بوجه الصحة فيه فن السهل علينا بعد ذلك أن نهتدي إلى أسس الإصلاح المزيل لأسباب النقص والممكن من الوصول إلى الغرض المطلوب دون تمثر في الطريق وتشعب متنافر في الأطراف والفروع ودون السير على غير هدى في شعبة التجارب والرأى الخطير .

أسس الإصلاح

وأسس الإصلاح المنشود تنحصر في ثلاث جهات عامة تدخل في شأن واحدة

منها طائفة من فروع هذا الإصلاح ، وهى الجهة الادارية ، والجهة الثقافية ، وجهة ختامية يترتب الإصلاح فيها على الإصلاح فى الجهتين السابقتين .

الجهة الادارية

وأساس الإصلاح فى الجهة الإدارية رفعها إلى الدرجة التى تجعلها فى صف الإدارة فى المعاهد العالية وكليات الجامعات . ويدخل فى هذا الباب الفروع الآتية وهى :

- (١) رفع دار العلوم إلى كلية (٢) إنشاء مجلس لها
- (٣) تعيين رؤساء للأقسام العلمية
- (٤) تنظيم هيئة التدريس بتقسيمها إلى أساتذة ، وأساتذة مساعدين ، ومحاضرين ، ومدرسين ؛ ووضع كل فريق منهم فى درجات من نوع درجات هيئات التدريس فى الكليات .
- (٥) تعيين الجهة التى تنفذ منها الدار وما يشترط فى الطالب الذى يلتحق بها
- (٦) الفصل فى مسألة السن من جهة تحديده أو إطلاقه
- (٧) وضع خطط الدراسة لزمان الحصص وعددها فى اليوم وفى الأسبوع وتوزيعها على المواد
- (٨) تحديد سنى الدراسة (٩) نظام الامتحانات وحالات الرسوب
- (١٠) وضع اللائحة الداخلية لنظام العمل اليوى والمكافآت والمقوبات

الجهة الثقافية

والإصلاح فى هذه الجهة إنما يكون أساسه النهوض بها إلى الدرجة التى تمنح العلم الإلزام العام بنواحي التفكير الإنسانى فى الدين والفلسفة والأدب والعلوم مع التخصص فيما هو أمس بحاجة العلم ومصلحة التعليم . ويدخل فى هذه الناحية الأساسية الفروع الآتية :

- (١) تقسيم مواد الدراسة إلى أربعة أقسام أصلية : وهى قسم الدين ، ويدخل فيه تاريخ الديانات والتوحيد والتفسير والحديث والأصول والفقه . وقسم الفلسفة
- (٢) — صحيفة دار العلوم)

ويدخل فيه تاريخ الفلسفة العام والفلسفة العربية والمنطق والأخلاق . وقسم الأدب ، ويشتمل على علوم اللغة العربية واللغات السامية ولغة أوربية حية . وقسم العلوم ، ويدخل فيه تاريخ نشأة العلوم وتطورها والعلوم التي يتقرر تدريسها بهذا القسم (٢) تقسيم المواد الدراسية إلى قسمين أحدهما يراعى في تدريسه طريقة التحصيل والثاني يدرس بطريقة البحث والتحليل

(٣) تقسيم طريقة التدريس إلى قسمين : أولهما يرجع إلى نظام الدرس والعمل في مواد التحصيل ، والثاني إلى طريقة المحاضرة في مواد البحث والتحليل

المجزة الخامسة

ويرتكز الإصلاح في هذه المجزة على تحديد قيمة الشهادة وما ينتظره حاملها بمؤهلاته العالية التي حصل عليها بعد إصلاح الدار في الإدارة والتنقيف ، ويدخل في ذلك ما يأتي :

(١) وضع شهادة دار العلوم في مستوى شهادة الدراسة في الكليات والاشتراك معها في الاسم .

(٢) إعطاء الحق لحامل هذه الشهادة أن يتقدم يبحث علمي إلى نيل شهادة الدكتوراه

هذه هي أسس الإصلاح في دار العلوم التي يجب النظر فيها قبل البحث في نفس هذا الإصلاح ، حتى إذا ما استقر الأمر عليها كما أجمعتها أو بعد تعديل فيها أو تغييرها بما هو أجدى منها ، تيسر لواضعي الإصلاح المنشود تنسيقه على وجه مؤلف لا تنافر فيه ولا اضطراب . وأقوى البناء ما وضع على أساس ، وأوهنه ما يتسند على الأطراف .

على العناني

علم النفس

وصلته باللغة والأدب والاجتماع

للمؤلف محمد خلف الله

المدرس بالجامعة المصرية

— ١ —

مقدمة

هذا الموضوع — على طرافته — حلقة من سلسلة مباركة ، بدأها من قبل أساتذتنا وإخواننا في علم النفس ، فذلّلوا بها صعوبة الأداء اللغوي ، ومهدوا فيها طريق التأليف . وقد اجتمعت لديّ فيه طائفة صالحة من الأبحاث (في كتاب معد للطبع) رأيت أن أقدم بمض نواحيها إلى قراء صحيفة « دار العلوم » جاعلاً نصب عيني غرضين أساسيين :

الأول : أن أساهم في التعريف بنظم الدراسة النفسانية وتطبيق الصالح منها في دراساتنا وأبحاثنا المصرية

والثاني : أن أقوم بتصبي في خدمة اللغة العربية من تجديد في دراساتها ، وتوسيع لثروتها ، وتحديد لمصطلحاتها ، حتى تقوم بوظيفتها في الأبحاث العلمية الحديثة على الوجه الأكمل ، وحتى تتمشى وروح الدقة في العصر العلمي الحاضر وقد آثرت فيما كتبت أن أدع الناحية التاريخية جانباً ، وأن أقصر على أحدث ما وصل إليه علم النفس ، لأعرض منه صورة لطيفة ، يلذها الربّي والقارى ويجد فيها جمهورنا المثقف عوناً على تتبع الحركة الفكرية في الممالك الراقية . وأنا في هذا أتبع نموذجاً في البحث والتأليف لفت نظري كثيراً أيام دراستي في الخارج وعلى الأخص في إنجلترا ، إذ وجدت القوم يتجهون إلى الأمام دائماً فيما يفكرون

ويعملون ؛ فهذا المؤلف ينقد رفيقه ، وذلك الباحث يبتدي من حيث انتهى
أخوه ، وهكذا يتناول القوم تراهم العلمي فيزيدون فيه ، ويبذون كما بنت أوائهم ،
ويجمعون في طريقهم بين الاستمرار والتجديد

هذا وقد خصصت الأجزاء الأولى من البحث لنمو اللغة وترقى الفكر عند
الطفل ، وعلاقة كل ذلك بمقدار الذكاء عنده ؛ وهذا منزع حداً بي إليه الميل
الأدبي الذي أشربته منذ الصغر ، والدراسة اللغوية التي تيسرت لي قبل تخصصي
في علم النفس ؛ وكان مما شجعني على سلوكه أن رأيت الأبحاث النفسانية الحديثة
(وقد جعلت ميدانها التصرف الناتئ ، واللغة بعض ذلك التصرف ، بل عنوانه
وترجمانه) قد ولجت على اللغة أبوابها ، وأوغلت في كشف أسرارها على أناس
علمي تجريبي ، فأصبح عالم فقه اللغة ، وعالم النقد الأدبي ، يعتمدان على النتائج
التجريبية لعم النفس فيما يقرران من نظرية أو يسوقان من برهان . وهذا دين قام
بوفيه علم النفس الحديث للغة ، فقديماً أذاع الشعر والقصص كثيراً من أسرار
النفس ، وأمدّ الفلاسفة والنفسانيين بالمادة التي ارتكزوا عليها في دراساتهم ،
وقديماً أسدى علم النقد الأدبي إلى علم النفس أباى جمة بما هذب من استعمال
الألفاظ ، وحدد من مدلول المبارات التي كان يستعملها العلماء في التعبير عن
النفس وأحوالها ، والمقل وتجاريه ، والتصرف ومظاهره . ولهذا كان إذا ذكر
علماء النفس بالمعنى العام دخل فيهم الشعراء والروائيون والكتاب

وقد ظل هذا القران بين الأبحاث النفسية الأدبية ، والأبحاث النفسية
العملية ، ردحاً من الزمن ، حتى أخذت الدراسات الطبيعية قلبها العلمى المضبوط ،
وسرى الأثر منها إلى دراسات النفس ، فأصبحت فرعاً يدرس لذاته ، ونشأ بينه
وبين القرن القديم جفوة وبماد . هذا التناى لم يكن منه بد ، فان الباحث العلمى
الذى يحاول أن يصل إلى قواعد وقوانين عامة للتجارب ، مضطر أن يضع فروضاً
ونظريات ، وأن يزن الألفاظ بميزان حساس ، وقد ينلو في ذلك فينقلب علاجه
للموضوع أبحاثاً نظرية جدلية ، لا تدنى من فهم الطبيعة الانسانية ، وإنما تباعد

عنه ، وتخرج بعلم النفس عما قال فيه ابن رشد : « وعلم النفس أغمض وأشرف من أن يدرك بصناعة الجدل » هكذا كانت الحال في القرن الماضي حين كانت الأبحاث النفسانية إنما يقصد منها شحذ القريحة والتفنن في ضروب الحجج ، والمهارة في التفريع والتدقيق ، على أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد بدأ الناس يدركون أن هذه النظريات النفسانية على ما بينها من تناقض وخلاف ، ممكنة التطبيق في الحياة العملية ، فطبق بعضها ونجح ؛ وانصرفت همه الكثيرين من الباحثين إلى ما يسمى الآن علم النفس التطبيقي ، وأصبحت ترى حتى علماء الأدب وفقهاء اللغة يفشون حدائق هذا العلم ليقطفوا منه ما يمينهم على فهم التجارب والآراء الانسانية ولست في حاجة أن أتوه هنا بما لعلم النفس الآن من منزلة في الشعوب المتحضرة فقد أصبح عماد الربى ، وقوام التاجر ، وسلاح السياسي ، وعدة الطبيب ؛ وأصبح القوم يمتدرونه المحور العام للدراسات الانسانية ، عليه تعتمد هذه الدراسات ، وفيه تجد أساسها الذي ظلت تنشده زمناً طويلا ، ولئن كان القرن التاسع عشر قد اصطبغ في تفكيره بصبغة علوم الحياة ، إن القرن الحاضر ليعتبر عصر العلوم الانسانية ، ففيه تفررت هذه الدراسات من ربة النظريات الفلسفية ، وأخذت تدنو رويداً من حظيرة العلوم الحديثة ، حتى أصبح المعمل والقياس والتجربة دعائم أبحاثها ، وحتى أصبحت الفلسفة ربيبتها ونهايتها لا مصدرها وبنائها هذا التحول الكبير في وجهة النظر العلمى يدركه كل من درس الفلسفة أولا ، واصطدم بنظرياتها وألغازها حتى تشعبت به السبل واختلطت عليه الموارد فراح يبنى نجوته في فرع كعلم النفس مبنى على المشاهدة والقياس ، ولقد قدر لي في ثمانى السنوات التى قضيتها في أوروبا أن سلكت هذه السبيل ، فدرست الفلسفة وفروعها من علوم نفس واجتماع وسياسة ومنطق وأخلاق وجمال وإلهيات ، فما إن قطعت شوطاً حتى وجدتني أميل إلى التخصص في ناحية واحدة هى ناحية علم النفس ، فدرسته عملاً وتجربة فوق دراسة البحث والنظر ، ثم اخترت من ميادينه الواسعة ميدانين : سيكولوجى اللغة ، ونفسانية الأطفال

فوهبتها معظم جهدى وزمنى ، وقضيت حوالى السنتين متنقلا فى المدارس الابتدائية أدرس الأطفال فى منطقهم وتفكيرهم ، ثم دونت بعض النتائج فى رسالتى التى قدمتها لدرجة الماجستير من جامعة لندن

هذه الدراسة الشخصية التى قمت بها هى التى عنيت الآن أن أنقلها إلى القارىء فى ثوب عربى ، وحرصت أن أجعلها صورة متحركة للطفولة من مهدها إلى رشدها ، وقرنت فيها النتائج بمصادرها ، حتى يسهل على إخوانى المربين وطلبة الفلسفة وعلم النفس واللغة ، تتبعها فى مواطنها والاستزادة منها ؛ وسأتناول فى المقال التالى طرق الدراسة النفسانية التى ستتكرر الإشارة إليها فى نقاط البحث ، إن شاء الله .

محمد خلف الله

بين القديم والحديث

الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية

بقلم سيد قطب

المدرس بمدرسة حلوان الابتدائية

أخيراً جداً استطاعت المدرسة القديمة في الأدب العربي أن تعترف بأن اللغة كائن حي يبيع الناطقين به ويبيئهم، ويسير تقدم الأفكار والعلوم، ويتأثر بالسياسة والاقتصاد والاجتماع... إلى آخر صفات الكائن الحى الذى يتطور وينمو ولكن هذا الاعتراف لم يعد الدائرة النظرية عند هذه المدرسة؛ لأنه جاء بجراحة للأفكار الحديثة عن اللغات، لا اقتناعاً عقلياً أو نفسياً بهذه الحقيقة. ولذلك لم يعمد أثره عند أبنائها ترديد هذا القول في كتبهم — أو مذكراتهم المدرسية — بتعبير أدق — وفي مقالاتهم التى يكتبونها فى بعض الأحيان. وظل هذا القول بعيداً عن التطبيق العملى، فى نقد الآثار الأدبية والنظر فى الأعمال الفنية الحديثة ومن هنا كان النزاع بين المدرستين القديمة والحديثة، وكانت هذه الصيحات التى نسميها من المدرسة القديمة عند ظهور كل مؤلف حديث؛ ولا سيما دواوين الشعر؛ إذ كان هذا اللون من الأدب هو الذى يتضح فيه الخلاف؛ لأن التعبير الثرى عادة يكون تصويراً لحقائق تكاد تكون متفقاً عليها، أو لأنواع من الأحاسيس لا ترقى إلى مرتبة الوجدان الشعري — فى الغالب — فلا يختلف التعبير اختلافاً يدعو إلى النزاع

على أن الخلاف فى حقيقته ليس خلافاً لغوياً أو أدبياً كما يحسب الكثيرون، وإنما هو اختلاف عقليتين، لا تكادان تتفاهان على أساس، فى النظرة إلى اللغة والتعبير، بل فى النظر إلى الحياة نفسها، فى جملتها وتفصيلها

فأما المدرسة القديمة ، أو العقلية القديمة ، فترى في الألفاظ العربية وطرق الأداء العربية ، نوعاً من الأصنام المعبودة ، لها قداسة وحرمة ؛ وترأها غاية في ذاتها ، لا وسيلة تصوير ؛ فيصعب حينئذ عليها أن ترى لهذه الألفاظ والتراكيب صوراً وأشكالاً غير ما عهدته في الأدب القديم

وأما المدرسة الحديثة ، فالألفاظ والتراكيب عندها أدوات للتصوير ، تختلف باختلاف الصور المراد إبرازها ، وباختلاف طريقة كل مصور في الأداء ؛ وترى أن طريقة الأداء هذه تختلف اختلافاً صغيراً أو كبيراً ، تبعاً للأمرجة الشخصية ، ولأمرجة الأمم الناطقة باللغة ، إذا تعددت هذه الأمم ، كما هو حال اللغة العربية . فلا بد تبعاً لذلك أن تختلف طرق استعمال هذه اللغة ، وأن تخضع لطريقة الأداء الخاصة لكل أمة من الأمم . وطريقة الأداء هذه اتجاه عقلي ونفسي ، قبل أن يبرز ألفاظاً وتراكيب . والتقيد بصحة الألفاظ وصحة التراكيب ليس معناه التقيد بدلالاتها الوصفية أو العرفية ، إذا اختلفت البيئة وتفاوتت أساليب الحياة

وقد يكون هذا الكلام نظرياً مجملاً ، ولهذا أتولى شرحه وترجمته إلى أمثلة محدودة فيما يلي :

لسنا نعرف بالضبط عمر اللغة العربية ، والذي نعلمه علم اليقين عنها يبدأ بالعصر الاسلامي ، أما العصر الجاهلي فإنا نعرف أشياء مبثورة عن نهايته ، ونجهل كل الجهل أوائله

ومع هذا فنحن نفرض أن عمر هذه اللغة قبل الاسلام يساوي عمرها بعده ، ونفرض أن ظروف التطور والتحول التي أحاطت بها في شطر عمرها الأول ، تعادل الظروف التي أحاطت بها في شطر عمرها الثاني — وهذا فرض متسامح فيه كثيراً — ثم نطالب بأن يكون تطورها الفعلي في الشطر الثاني ، مساوياً لتطورها في شطرها الأول فحسب . فماذا نرى ؟

نرى في الشطر الأول ، أن ألفاظاً كانت قد وضعت لمحسوسات ملموسة ،

فارتقت إلى محسوسات غير ملموسة ، ثم إلى (مدركات كلية)
 و نرى ترا كيب استعملت أولاً لحالات مجسمة أو واقعة ، فارتقت منها إلى
 حالات معنوية مجردة

و نرى أساليب متباينة ، على حسب الموضوعات التي تعبر عنها والمآلى
 التي تصورها

وأمثلة القسم الأول كثيرة . أذكر منها :

- (١) كلمة « شرف » فقد وضعت أولاً « للمكان المرتفع » ثم عبر بها عن
 « العلو » ثم صارت إلى المعنى النفسى الذى تدل عليه
 (٢) كلمة « كتابة » فقد كانت أولاً « للقيء » ، ثم صارت إلى معنى
 « التقييد » ، ثم انتقلت إلى مدلولها الحالى

- (٣) كلمة « سبب » فقد كانت أولاً « للجبل » ثم صارت إلى « الصلة » بين
 شيئين ، ثم توسع في هذا المعنى الأخير ، إلى أن يكون وجود شيء داعياً
 لوجود شيء آخر

وأمثلة القسم الثانى كثيرة كذلك في الأمثال العربية وسواها من
 الاستعمالات التقايدية الشبيهة بالأمثال . أذكر منها :

- (١) « بلغ السيل الزبى » فقد كان مورد الثل بلوغ السيل الحقيقى إلى المرتفعات
 الحقيقية ، ثم صار مضربه لكل أمر جاوز حده .
 (٢) « الصيف ضيعت اللبن » فكان في مورد صيف ولبن حقيقيان ، ثم صار
 يضرب لكل من فوت فرصة وعاد يطلبها .
 (٣) قولهم : « أثلج الله صدره » فهو مأخوذ من البرد الحقيقى المطلوب في بلاد
 حارة كبلاد العرب ، ترى النعيم في نسمة باردة . ثم صار يقال لكل من تطلب
 راحته النفسية .

وأمثلة القسم الثالث كثيرة في الأساليب المتنوعة حسب الأغراض المتنوعة ،
 مما لا يحتاج إلى إثبات نصوص خاصة يطول بها هذا البحث دون حاجة
 ثم نرى غير هذا كله ، ألفاظاً وضعت للحى ، عبر بها عن غيره ، كقول

القرآن الكريم: «والصبح إذا تنفس» وألفاظاً لغير العاقل عبر بها عنه كقولهم: «صلب العقيدة» و «عذب الحديث» وألفاظاً وضعت للحس ، عبر بها عما لا يحس ، كقولهم : « ناء عليه الدهر بكلكله »
وهكذا وهكذا ، في كل الاستعارات والمجازات

هذا طرف يسير مما وصلت إليه اللغة من التطور والتحول ، والبعد عن أصولها الوضعية في الألفاظ والتراكيب المختلفة ، في شطر عمرها الأول ، فإذا نحن تصورنا اطراد سيرها في هذا السبيل الطبيعي مدى الشطر الثاني ، في التطور والتحول والبعد عن الأصل ، فأى تمتع إذاً هذا الذى يحاوله من يضطرك للوقوف عند الدلالات الأولى للألفاظ والتراكيب والأساليب ؟
والذى يبيح لكلمة الشرف أن تتطور حتى تصل إلى معناها الذى وصلت إليه في آخر العهد الجاهلي ، لم لا يبيح لكلمة «الفنان» مثلاً أن تتطور من معناها الأصلي إلى معناها الذى يخطئه اللغويون في هذه الأيام ؛ مع أن خطوات تطورها أقصر من خطوات كلمة « الشرف » مثلاً ؛ فهذه وصلت إلى أن تكون اسم « معنى » وتلك لا تزال اسم « ذات » . والأول أسبق في مدارج الرقي .
والذى يبيح لكلمة « يتنفس » أن تسند إلى الصبح ، منذ ذلك العهد البعيد ، لم لا يبيح لكلمة « يلثم » أن تسند للفجر ، أو النور ، فيقال :
ألمح الفجر وراء الفلس يلثم الكون يبشر وابتسام
أو يقال :

يلثم النور وجهها وهي نشوى تنمض الجفن لذة أو دلالة
وهذه وتلك لا تمدوان ما ورد في الاستعمالات العربية القديمة ، ولكنهما لم تردا بأعيانهما ، ولهذا وحده لا تقبلهما المدرسة القديمة هما وأمثالهما من التعبيرات

وبعد فقد أخذت البحث حتى الآن مأخذاً متواضعاً ، لأصور مقدار العنت الذى يحاوله المدرسة القديمة ؛ ولكن المسألة في الحقيقة أوسع من هذا ، ويجب

أخذها بصراحة تامة ، تخرج الألفاظ والتراكيب العربية عن حرمة القداسة التي يريدونها لها ، وتخضعها للبحث العلمي ، في قوة وجلالة .

يجب ألا نجد في نفوسنا حرجاً من المصارحة بأن هذه اللغة ليست لغتنا الأصلية ، وإنما هي لغة شعب آخر ، يختلف عنا في كثير من التقاليد والمادات والأفكار والبيئة ، والموامل الاقتصادية والسياسية . . . إلى آخر ما يختلف فيه شعبان .

وأن كل ما يربطنا بهذا الشعب ، إنما هو الصلات الدينية ، والتراث الأدبي ؛ وهاتان الناحيتان لا تستغرقان النفس الإنسانية المتشعبة الناحي .

وإنه تبعاً لذلك ، لا بد أن تظل هناك فجوات كبيرة ، بين مزاجنا ومزاجه ، وأفكارنا وأفكاره ، وعواطفنا وعواطفه ، وآمالنا وآماله . . . وحينئذ لا بد أن تختلف طرق أدائنا وتعبيرنا تبعاً لهذا الاختلاف ؛ ولا بد أن نجد بيننا صور فكرية ونفسية لم يستشعرها واضع اللغة الأولون ؛ فنختار لها نحن أداء من نوع خاص ، لم يوجد في طرق الأداء المعروفة لهذه اللغة ، وإلا بقي جانب كبير من أحاسيسنا مكتوباً بدون تعبير ، ويمكن هنا الاستشهاد بتطور الفنون الجميلة — وهي أداة تعبير وتصوير^(١) .

وأحب أن يرسخ في الأذهان أن ما نعبر عنه بالأسلوب ، لا بد أن يختلف في شعب عنه في آخر ولو توحدت اللغة التي ينطقان بها ، وأن هذا الاختلاف ضرورة عقلية لا فكك منها ، وليست داخلية في نطاق الإرادة ليقبل الإنسان منها ما يريد ويرفض ما يريد ، مادام صادقاً في إحساسه ، صادقاً في التعبير عنه .

وأحب أن يرسخ في الأذهان كذلك أن المدرسة الحديثة ، حين يرد في أدبها بعض الأساليب الخاصة ، لا تعتمد بذلك أن تخرج على العربية المتعارفة ، ولكنها لا تجد فيها ما يصلح للتعبير عن نوع خاص من الخلجات لم يسبق أن أحسه الشعب العربي ، حتى يوجد التعبير عنه في لغة ، أو أحسه في ضعف وفقر ؛ فتلجأ

(١) تنوع هذه الإشارة لبحث كامل ، تستعرض فيه المدارس الفنية المختلفة وطرقها وأسباب تطورها وتداخلها

حينئذ إلى خلق استمالات وصور جديدة من الأداء ، تناسب هذه الخلجات الجديدة في حدود اللغة العربية الصحيحة ؛ وسيأتى تفصيل ذلك بالأمثلة .

ثم نمود إلى ما كنا فيه ، لنقول : إنه فوق ما تقدم من الاختلاف الطبى الذى لا حيلة فيه ، بين الشعب العربى والشعب المصرى ، فإن مفردات هذه اللغة وتراكيبها الغالبة ، قد وضعت فى عصر البداوة للشعب العربى نفسه ؛ ولم تسار اللغة حضارة هذا الشعب فيما بعد بنسبة تقدم هذه الحضارة ، وذلك لوجود روح من التحفظ الدينى ، أوجد ما يشبه الجود فى الوضع والاشتقاق بعد عهد الجاهلية وصدر الإسلام ، فبقيت صور الألفاظ العربية محدودة — على سعتها — بمحدود النفس البدائية الأولى للعرب ، فى الوقت الذى جدت فيه ألوان من الحالات النفسية المركبة والراقية دون أن يوجد لها ما يقابلها من الألفاظ والتعبيرات .

ولقد اضطر فنانون عظام من العرب فى العهد العباسى : كأبى نواس وابن الرومى ثم المتنبى ، إلى ابتداع كثير من صور التعبير ، وإلى إدماج كثير من المشتقات الجديدة فى شعرهم ، مسيرة للحاجة النفسية ، وهى التى تنشأ الألفاظ ، وتبدع طرق الأداء . وحصل أكثر من هذا فى الأندلس ، فى أوزان الشعر وطرق الأداء وكذلك اضطر جماعة من العرب المحدثين فى عصرنا هذا ، بمن عاشوا فى أمريكا ، أن يتبدعوا صوراً جمة من صور التعبير ، وأن يخطتوا طرقاً جديدة من طرق الأداء ، لا عهد للغة العربية بها فى عصر من العصور

على أن اللغة العربية ، لو سارت فى الوضع والاشتقاق وطرق الأداء نهضة الشعب العربى فى عصوره الذهبية ، ما استطاعت — مع هذا — أن تفى بم حاجتنا نحن اليوم ، مالم تخضع للتعديل والتحويل والابتداع . وذلك لسببين :

(الأول) ما قدمته من بيان الاختلاف بين طبيعة الشعبين ، اختلافًا يتقص أو يزيد ، ولكنه موجود على كل حال .

(الثانى) أن خطوات النهضة العربية فى عصورها الذهبية ، تتخاذل أمام النهضة الحالية ؛ وقد تضاعف التراث العقلى والفنى مرات ، بما أضيف إليه بعد

تلك النهضة ، وكل هذا أثره في الحاجة إلى الألفاظ الجديدة وطرق الأداء الجديدة وقد أسلفت أن سلالة هؤلاء العرب ، الذي سكنوا المهاجر ، لم يجدوا في هذه اللغة الذناء كله ، فأضافوا وأبتدعوا وتصرفوا .

والدليل على أن هناك اختلافا لا بد منه تبعا لاختلاف الحياتين ، نجد في صلب اللغة ؛ فلو أنها كانت لفتنا الأصلية ما أمكن أن توجد فيها ألفاظ وتعبيرات بالذات ، منتزعة من صميم البيئة العربية الخالصة ، من هذا :

« أنلج الله صدره » وقد سبق الحديث عنها — و « سقيا لفلان » فباعها الجذب الذي كان يهدد البلاد العربية فيجعل السقيا أمنية تمني ، ولا حاجة بنا نحن لهذه الأمنية والنيل يروينا ويفرقنا ! — و « ذهب ربحهم » ، أو « هبت ربحهم » وهو مأخوذ من أثر الريح في خيام العرب ورحلتهم في الصحراء ، و « أخذ زمام الأمر في يده » و « حدابي إلى كذا » وهو مأخوذ من قيادة الإبل ، و « لم يبق في قوس الصبر منزع » و « أعطى القوس باريها » وهو مأخوذ من أدوات القتال الخاصة بشعب بدوي .

فهذه التعبيرات وأمثالها ، وهذه المفردات الداخلة في صلبها ، ما كانت لتوجد في اللغة لولا نشأتها في بيئة خاصة .

ومن الإنصاف ألا تطلب لهذه اللغة أن تحتوى ألفاظا وتعبيرات لم توجد في هذه البيئة بالفعل ، وما هي بمستطاعة أن تحويها جميعا فقد تزيد في ناحية وتقصّر في ناحية إذا أخذها شعب آخر ، له بيئة أخرى ، وجعلها لغة له ، ولا بد لهذا الشعب الجديد من التصرف في هذه اللغة الأجنبية عنه ، حتى يوافق مقتضيات حياته ؛ وحسبه أن يحافظ على صحة ألفاظها ، وصحة إعرابها ، وعلى ما يستطيع المحافظة عليه كذلك من طرق أدائها ، ودلالة ألفاظها وتعبيراتها ؛ ثم يتصرف فيما عدا ذلك بالوضع والاشتقاق ، وتحويل الدلالات ، وطرق الأداء . وهذا ما أخذت تحمقه المدرسة الحديثة اليوم ، فأثار المدرسة القديمة وأقلقها !

وأنا على يقين لا شبهة فيه ، أن هذه اللغة إنما حافظت على أوضاعها الأولى في مصر ، لأنها كانت لغة شعب قاطع قوى ، في عهد اضمحلال وضمحل للشعب المحكوم ، حتى ضاقت خلجات نفسه ، وضمرت نوازعه ومطامعه ، فلم يجد به حاجة ملحة إلى التحوير فيها والتعديل ، ثم إلى الخلق فيها والابتكار

ودليلي على ما أقول : أن هذه النهضة المصرية الحديثة ، وعمرها لا يتجاوز نصف قرن ، قد استشعرت هذه الحاجة الملحة في أولى خطواتها ، وسيزداد إلحاح هذا الشعور كلما اتسعت آفاقها النفسية والفكرية ، وقويت مميزاتها الذاتية وأن اليهود السابقة في مصر ، على ضعف بيئة الشعب المصرى فيها ، وضيق آفاقه النفسية والعقلية ، وضمور إحساسه بشخصيته ، لم تستطع الصبر التام عن التحوير والتعديل .

وهؤلاء شعراء مصريون مواهبهم ضئيلة ، وآفاقهم ضيقة ، مثل البهاء زهير ، وابن نباته ، قد حصروا هذه اللغة في شعرهم ، واختاروا طرقاً للأداء فيها لم تألفها في بلادها الأصلية ، وإن كان ذلك كله في نطاق ضيق محدود ، مطبوع بطابع التفاهت والضعف

ولا يعدم قارى شعراء هذه الفترة أن يجد من هذا كثيراً ، وهو كما ترى مصرى معرب

ولا خطر في الحقيقة من هذا التلقيح ، لأن بنية اللغة تحتمله ، وصدرها يتفسح له ، وقد استطاعت أن تهضم كثيراً من اللغات الفارسية والعبرانية والسريانية ، بل الهندية والرومية ، طائفة في ذلك أو كارهة ، لأن الركود مستحيل في اللغة ، إذا كان الذى ينطق بها في حالة تجدد ونشاط

وهناك حقيقة أخرى خاضعة للبحث النفسى العلمى ؛ فقد أسلفت أن هذه اللغة وضعت غالبية ألفاظها ، وحددت طرق استعمالها ، وصور أدائها ، إبان طفولة النفس العربية وبدائها

فالآن أقول : إن النفس البدائية البسيطة ، الضيقة المجال ، المحدودة التجارب

التي لم تخزن في عقلها الباطن ثروة من الأحاسيس والانفعالات ، تميل إلى التحديد والبيان الحاسم في الخوارج النفسية ، والأحكام العقلية ، والتعبيرات اللغوية ؛ وذلك لقربها من « الإدراك الحسى » للجزئيات ، وبعدها عن الشعور الشامل بالكليات . وفى عالم الحس ، تتميز الأشكال ، وتباين الأضداد ؛ فالستدير غير الثلث والمستطيل ، والأسود يتنافى الأبيض والأحمر ، وهكذا ...

وفى النفس المبتدئة لا يجتمع الإحساس وضده فى وقت واحد ، فالفرح لا يوجد مع الحزن ، والألم لا يجتمع مع اللذة ، والتواضع لا يلتقى مع الكبرياء ، والخير لا محتويه النفس مع الشر ... وهكذا

هذا وذاك فى عالم الحس ، وفى عالم النفس البدائية . أما فى عالم المعانى ، وفى العالم العقلى الراقى ، وفى النفس المركبة المنفسحة الجوانب ، فتلتقى الأضداد الظاهرية ، وتجتمع المتناقضات الخارجية ؛ لأنه لا تضاد ولا تناقض فى هذا العالم الفسيح .

وليس هذا كلاماً طائراً خيالياً ، فالأمثلة الواقعة فى الحياة تبرهن على ذلك وتشرحه ، وإليك المثال :

(١) الرجل الذى يموج سلوك زوجته ، أو إحدى قريباته ، فيبلغ به الحنق أن يقتلها دفاعاً عن عرضه . ماذا يكون شعوره بعد هذا ؟ ألا تلتقى فى نفسه لذة الانتقام والحفاظ على العرض بألم الجريمة ولوعة فقدان ؟ فإذا علينا حين نعبّر عن هذه الحالة بأنها « لذة أليمة » أو « ألم لذيذ » ؟

(٢) الشاب الذى يحب فتاة ، ويتغلغل هذا الحب فى نفسه ، ثم تصادفه فى ذلك آلام شديدة ، حتى ليكره هذا الشعور الذى يحشمه ما لا يطابق . ألا يجتمع فى نفسه الحب مع الكراهة لهذا الحب ؟ فإذا علينا حين نسمى هذا : « الحب المكروه » ؟

(٣) الفتاة التى يهجرها خطيبها إلى فتاة أخرى ، وهى تضرر له الحب ولكنها تنار ، ثم تلج بها الفيرة حتى لتود موته ولا يكون لسواها ؛ وإذا بها تسمع أن خطيبها المهاجر قد غرق فى النيل ، وقد كان فى نزهة نبيلة مع غريمها . ألا يجتمع

في نفسها فرحة الشامة وحزن الفجيمة ؟ فإذا علينا لو سمينا هذه الحالة النفسية « الفرح الحزين » ؟

في هذه الأمثلة (وقد تمعدت البساطة في اختيارها ، فتعدد الحالات النفسية وراء هذا بكثير) في هذه الأمثلة تناقض لفظي نعم ! ولكن ليس هناك تناقض في الواقع ، بل هناك صدق في التعبير يحتم هذا اللون منه ، كما أسلفت في الحديث وهذه الأمثلة ونظائرها ، هي التي تشور عليها المدرسة القديمة ، وتجعلها مادة لتندرها في اجتماعاتها الخاصة ، أو نقداً لها الساخرة

وإذا كنا نرى ونسلم برقي الحواس منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، ونعلم أن العين التي كانت لا ترى إلا النور والظلمة ، ترقى إلى تمييز الأشباح ، ثم إلى تمييز أجزاء الجسم الواحد ؟ ثم انتهت إلى أن تدرك الأجزاء والكل في لمحة واحدة

ونعلم أن الأذن التي كانت تدرك النغمة المفردة ، ولا تستطيع التمييز بين النغمات المختلفة أو المقاربة ، قد ارتقت إلى أن صارت تطرب للنغمات « الاركستر » وهي تتباين علواً وانخفاضاً ، وتختلف نوعاً ولوناً ، ثم تأتلف منها في الأذن نغمة واحدة شجية

إذا كنا نرى ونسلم باستطاعة الحاسة أن تجمع مرئيات ، أو أصواتاً مختلفة في آن ، فكيف لا نسلم باستطاعة النفس المركبة المعقدة ، أن تجمع الأحاسيس المتنوعة المتناقضة ظاهرياً في آن ؟

ومتى سلطنا باجتماع هذه الأحاسيس ، فلم لا نسلم بالتعبير عنها في صورة رسمها رسماً صادقاً في تناقضها واجتماعها ولو لم يرد مثلها في التعبيرات الربية ؟

نعم ! كيف لا نسلم بهذا ، إلا إذا كان إخلاصنا للأشكال اللغوية ، أقوى من إخلاصنا للصدق ؛ وتعلقنا بالنصوص والأوراق ، أشد من تعلقنا بالحياة والاحساس ؟

ولقد كان هناك نوع من المذلل للقدامى لو أنكروا مثل هذا ، لأن الحالات

النفسية التي تقتضيها لم تكن موجودة، أو وجدت ولكن لم يكن هناك ما يفسرها لهم، لتأخر الدراسات النفسية لديهم.

ولكننا نحن اليوم قد وقفنا على كثير من البحوث «السيكلوجية» التي تكشف خبيثة النفس الانسانية — إلى حد ما — وجدت لدينا نظريات علمية، كفيلة بتفسير هذه الحالات الوجدانية المعقدة

فنظريات «فرويد» عن «العقل الباطن» ومحاولات التحليل النفسي «لأدلر» و«يونج» وسواهما ونظرية «السلوكيين» معتمدة على تجارب «بافلوف» وغيره كل هذه الثروة يجب أن تعيننا على فهم النفسية الانسانية ونخبأها، فتفسر لنا تعبيراتها وأداءها

وفي اعتقادي أن الباحث اللغوي، كالناقد الأدبي، لا بد له من هذه البحوث حتى يستطيع تفسير التطورات اللغوية، والاتجاهات الأدبية، ويفسح صدره لها ولا يقسو في الحكم عليها، لأنه يفهم الدافع إليها

وربما يلوح هذا القول غريباً، ولكن غرابته تزول، متى سلمنا أن «التعبير» لا يكون إلا إذا سبقه «الانفعال»، وأن الانفعالات يجب الاهتمام في تفسيرها بالبحوث النفسية

فنظريات العقل الباطن، والتحليل النفسي، تقول لنا: إن هناك في كل نفس انفعالات مكبوتة تحاول الظهور، وإن كتبها ومحاولة ظهورها يسببان كثيراً من الحالات النفسية الكامنة ومن التصرفات الظاهرة، لا تفهم إلا بهذا المفتاح، وإنه قد يجتمع نتيجة لذلك، في وقت واحد، في النفس الواحدة، عدة انفعالات متباينة تبدو لا علاقة للواحد منها بالآخر

فاذا وجدت تعبيرات عن مثل هذه الحالات، فلا بد أن تجمع بين ما يلوح متناقضاً، وهو موجود في صميم النفس الانسانية

ونظريات السلوكيين تقول لنا: إن تصرفاتنا في الحياة إنما هي انعكاسات شرطية وتستشهد بتجربة «بافلوف» مع الكلب الذي كان لعابه يسيل إذا دق جرس

خاص ، لأن هذا الجرس اقترنت دقائه قبل ذلك بمجىء الطعام ، وبتجاربه الأخرى
وتجارب سواء

فإذا وجدت في النفس الانسانية حالة شبيهة بهذه ، فلن نفهمها ، حتى نعرف
الشرط الذى اقترن بالانفعال الأول ، وكذلك لن نفهم التعبير الذى قد تبعته هذه
الحالة إلا بهذه الدراسة النفسية

وسأعرض حالات مثالية ، لتوضيح ما تقدم :

هناك تعبيرات عن أحاسيس منشؤها « تنابع المانى » وهي حالة نفسية معترف
بها فى أبسط الدراسات النفسية ، ومن أسبابها الاقتران الزمانى أو المكافى ، مثل
تعبير « المانى الحمراء » . فكيف تكون المانى حمراء ؟

التفسير أن هذه المانى كان قد سبق وجودها فى النفس ، مقترنة بضوء أحمر ،
أو لون أحمر على العموم ، فإذا تكرر خطورها فى الذهن ، خطر معها اللون الأحمر ،
وإذا كان هذا الدهن مجسماً (والتجسيم موجود فى كثير من الطبائع) تخيل لهذه
المانى شخصية مقترنة بالضوء الأحمر ، فإذا هى حمراء !

وطبيعى أن الشاعر لم يفكر هذا التفكير ، ولكن هذه الخطوات تمت فى عقله
الباطن ، وهو الذى يمد الفنان بالإحساس والتعبير

وبعض الناس يتخيل للأصوات ألواناً ، وعقله هذا هو الاقتران فى الدهن كما
سبق التمثيل

كما أنه يجد تفسيراً علمياً آخر :

فالمعروف أن الدبذبات الصوتية ، والدبذبات الضوئية ، التى ينشأ عن تموجها
سماعنا للصوت ، ورؤيتنا للضوء . هذه الدبذبات فيها أوجه شبه كثيرة فى شحنتها
الكهرطيسية (الكهربية المغنطيسية) . ولها درجات متفاوتة ، وطبقات ذاهبة
سموذاً وهبوطاً

وطبيعى أن كل درجة صوتية تحدث فى النفس انفعالاً غير الطبقة الأخرى ،

التي ترتفع أو تنخفض عنها . وكذلك درجات الضوء تحدث انفعالات نفسية على حسب ارتفاعها وانخفاضها
فإذا تشابه الانفعال النفسى الذى تحدثه طبقة اللون البنفسجى مثلاً فى نفس ما
مع الانفعال الذى تحدثه طبقة خاصة من الصوت فى هذه النفس ، أخذ هذا
الصوت ذلك اللون الذى شابهه فى إحداث الانفعال ، فأصبح « الصوت
البنفسجى » !

ومسألة تشابه الانفعال الضوئى بالانفعال الصوتى محتملة ، لتشابه كثير من
صفات الضوء والصوت كما أسلفت
وكذلك يمكن تفسير هذا وأمثاله « بتداخل الأحاسيس » وهو عيب ، أو خاصة ،
ولكنه مزية فى الفنان ، تساعد فى الإحساس والتخيل

وينشأ عن تداخل الأحاسيس ، أن يحس الإنسان المسموع منظوراً ؛
والمنظور مسموعاً ، والملموس منظوراً أو مسموعاً ، أو هما معاً ، كما فى حالة المصايين
بالعمى أو الصمم ، الذين يتخيلون صوراً وأصواتاً لا يلمسونه دون أن يروه أو يسموه
فلا غرابة إذن فى « الصوت البنفسجى » أو « الجسم الضاحك » أو « تسمع
العين ضحكها » أو « لفتات منغمة » ... الخ

وهناك تعبيرات عن حالات نفسية ، منشؤها التخيل ثم « المشاركة الوجدانية »
وهى حالة نفسية معترف بها كذلك
ومثال هذا أن يخلع الإنسان على الجماد حياة فيخاطبه وبأنس به ، وعلى
الحيوان إدراكاً ، فيتفاهم وإياه . ومعظم الاستعارات قائم على هذا الأساس
فإذا رأينا شاعراً يذكر « المصباح الساهد » أو « العيون الظامئة » أو « أحلام
التخيل » أو « فكرة جسم » أو « اليد المفكرة »
فهذه الحالة النفسية التى ذكرتها كفيلة بتفسير الدافع لاختيار هذه التعبيرات
وبيان صدقها فى التصوير

وهناك تعبيرات منشؤها « طبيعة التجسم » وهى حالة نفسية متعارفة . ومثال

ذلك أن تخيل الدمانى المجردة ، ذواتاً محسوسة ، تحس وترى ، والمصورون الفنانون يمتازون بهذه الطبيعة ، فيتخيلون المدالة — كما رسموها — امرأة تمسك بيدها ميزاناً وهي ممصوبة الميتين . والمعرفة امرأة تمسك بيدها مشعلًا ، ونهر النيل رجلاً ضخماً الجسم قوى المضلات ترقد على أنحاذه وصدره أطفال ترمز إلى روافده ... وهكذا

فاذا رأينا شاعراً يذكر : « الرجاء الدامى » أو « الأمل البسام » أو الألمان الجريحة » أو « الآمال الهانفة الراقصة » أو « الصمت الداهل الشريد » الخ فهذه الطبيعة تفسر هذه التعبيرات ، وتشرح ما فيها من الصدق والجمال .

وبعد — مرة أخرى — فقد تقيدت فى بحثى بعنوان المقال ، فتحدثت فقط عن « الألفاظ والتعبيرات » . ولكن هذه ليست كل شئ بين المدرستين القديمة والحديثة ؛ وإن وراءها مجالاً أوسع للخلاف ، وأحق بالعناية والاتفات ؛ ذلك مجال اختلاف الإحساس بالحياة بين هاتين المدرستين ، واختلاف فكرتهما عن الحياة ، كما قدمت

فالمدرسة القديمة ضيقة الإحساس ، بدائية الشعور ، قليلة الدخيرة النفسية والتجارب الوجدانية ، بمقدار انفساح الاحساس فى المدرسة الحديثة ، ووفرة الدخيرة النفسية لديها ، والتجارب الوجدانية

ولهذا تضيق الأولى بالأخيرة ، لأنها تطالهما بألوان من الإحساس لاعهدلها بها ، بعد ما ألفت ألا تنسع إلا للون واحد من ألوان المواقف والخوارج ، تعرف له صورة واحدة ذات معالم وحدود ، فتحسب أن كل ما فى هذه الأحاسيس الجديدة ، إنما هو اختلاف فى التعبير ، والواقع أنه اختلاف فى الحالات النفسية ، التى استدعت هذا التعبير .

والآن وقد طال الحديث ، وتشعب البحث ، لا أجدنى مستطيعاً أن آتى بالأمثلة التى تصور هذه الحالة ؛ فلأدع ذلك إلى فرصة أخرى وحسبى اليوم ما قررت به بشأن « الألفاظ والتعبيرات »

سير قطب

الثقافة

معناها — حدودها — عواملها

للمؤلف عبد الحميد حسن

المفتش بوزارة المعارف

تحدث عن الثقافة ، وعن الرجل المثقف ، والسيدة المثقفة ، ونشدد في مدارسنا قسماً قليلاً أو كثيراً من الثقافة ، ونرى ذلك لا بد منه لحياة المعلمين ، ونهتم في نظامنا التعليمي بمزج حياة الثقافة العامة ، إلى غير ذلك مما ينبغي أن الثقافة من دعائم الحياة الناهضة ، وأن قسماً منها لا بد منه لوحدة التفاهم بين الجماعات والشعوب ، فامعنى هذا ؟ وما الثقافة ؟ وما حدودها ؟ وما عواملها ؟ ولماذا نشدها ؟ ولعل أول ما نتجه إليه هو أن نمرف ما يقصد بالرجل المثقف ، وأن نتعرف أمثلة له في الخارج : أهو الطبيب الماهر ، أم المهندس البار ، أم الأديب الملم بفنون القول ، أم القاضي المحييط بدقائق القانون ، أم الاقتصادي الذي له بالنظم المالية خبرة شاملة ، أم السياسي الذي لا تنعاضى على مواهبه معضلة ؟

أم ماذا عسى أن يكون من أصناف المعلمين ؟ أهو الذي درس الآداب وفروعها واللغة وقواعدها ؟ أم الذي أحاط بالعلوم الطبيعية والرياضية ؟ أم الذي تزود بقسط وافر من التاريخ وأسباب التبدل الدولي وتحول مراكز المدنية من بقعة من بقاع الأرض إلى غيرها ؟

وهل يرجع الجانب الثقافي في هؤلاء أو أحدهم إلى مهارتهم ومقدرتهم العقلية وبراعتهم الفكرية ؟ أم هو راجع إلى ما حصلوا من معارف أو ما وهب لهم من ذكاء ؟ أم إلى ما اكتسبوا من لباقة وخبرة ؟

قد يكون هؤلاء جميعاً مثقفين على اختلاف فيما تخصصوا فيه من علوم أو فنون ؛ وقد يكون بعضهم بعيداً عن الثقافة ضئيل الإلمام بما يقربه منها على غزارة ما جمع من حقائق في المادة التي اختص بها ، فالثقافة إذن ليست هذا الجانب العلمي

أو الفنى الذى فاضوا في الاستزادة منه وتعمقوا في دراسته ؛ وإن ما تتطلبه الثقافة من معارف لا ينتمى إلى علم واحد خاص ولا إلى مجموعة من العلوم أو الفنون بأكملها ؛ ولكن لا جدال في أن الثقافة تتضمن جانباً علمياً يحصله الإنسان بالدراسة والمزاولة ، بل إن هذا القدر العلمى وذلك الجانب التحصيلى هو محور الثقافة وعامل ذو شأن في أهم مظاهرها ومقوماتها .

فماذا عسى أن يكون هذا الجانب ؟ وما حدوده ؟ وإلى أى علم ينتمى ؟
وقبل البحث في هذا ننظر فيما عسى أن يكون هناك من صفات أخرى تتم بها الثقافة إلى جانب التحصيل العلمى

إن الإلمام العلمى وإن كان هو أهم مقومات الثقافة ليس وحده الذى يحقق الثقافة . فالثقف ليس هو الذى يملأ جيبته بالحقائق ويكدسها في عقله أو يجرى لسانه بها جملة أو مفصلة دون اعتداد بصفات أخرى ينبغى أن تتوافر حتى تتم الثقافة في درجة من درجاتها . ولابد إلى جانب المعرفة من عوامل أخرى أهمها المواهب المصقولة والعقل المرفه والمهارة . ولكن ليس المقصود بها مهارة يدوية أو صناعية ، بل المراد هو المهارة في صوغ المعلومات وترتيبها والتفكير فيها تفكيراً منظماً منسجماً ، وحسن التعبير عنها واللباقة في أدائها .
فمناصر الثقافة إذن هي :

(١) كسب المعارف (ب) كسب المهارة (ج) لباقة اجتماعية
وانسجام في الصوغ وحسن الأداء
ولنذكر بعض الآراء في الثقافة نوضح بها بعض وجهات النظر وتبين من خلالها ما يزيد البحث تحديداً :

- (١) هي نوع من الصقل العقلي والفنى
- (٢) هي الإلمام بخير ما عرف وقيل
- (٣) هي القدرة على التفكير المنظم وعلى الكلام والكتابة مع ميل إلى الفن الجميل والآثار الأدبية والاعجاب بها ، واحترام التقاليد والمثل العليا
- (٤) هي النظر في الحقائق والقدرة على الانتفاع بها وشحن المواهب العقلية

- (٥) هي مقدرة اجتماعية وقوة يتعاون في إيجادها عوامل ثلاثة : الحقائق التي نلم بها ، والبراعة التي نكسبها ، والقوة العقلية التي ننمينا
- (٦) هي صقل الأفكار والآراء والنظريات الانسانية مع فهم القوانين الاجتماعية
- (٧) ليست هي الالام بالآثار العملية لحسب أو التهام الحقائق التهاماً جافاً بعبداً
- عن الحياة الاجتماعية التي تصهرها وتصلقها وتصوغها صوغاً يخرجها أمام الناس
- (٨) هي أن يفهم الانسان المجتمع ويلم بما يؤثر في أفرادهِ وعقليتهم واتجاههم الحيوى .

* * *

من كل هذا يظهر أن هناك عاملاً أساسياً في الثقافة وهو التحصيل لذاية خاصة تتصل بالمجتمع وبخير ما أنتج العقل الإنسانى . فإن الثقافة ليست صفة فردية منمذلة عن المجتمع وما فيه وهى إنما تنمو فى بيئة اجتماعية . أى أنه لا بد أن تكون هذه الحقائق مما يدور فى المجمع ومما له صلة بالحياة فى مظاهرها العامة . ولا بد أيضاً من صقل هذه المعلومات وإنضاجها حتى لا تكون جافة نائية . وعلى قدر تخير هذه الحقائق تخيراً يقرب من حاجات المجمع يكون أثرها وقيمتها فى الثقافة

قلنا إن العامل الأساسى فى الثقافة هو التحصيل والمعرفة ، وهذا يصل بنا إلى نقطة أخرى ، وهى الفرق بين الثقافة والدكاء ، وهل الدكاء من العوامل المهمة فى الثقافة

ويبدو من العوامل التى استعرضناها وقلنا إنها من مقومات الثقافة أن الدكاء ليس من العوامل الأساسية فى الثقافة ، على أنه لا يتعارض معها . فالدكاء له حدود وله مقاييس ابتكرها العلماء . أما الثقافة فمقياسها الأساسى هو التحصيل والقدرة على حسن عرض المعلومات فى مهارة ولباقة وانسجام . وقد يكون فى ثنايا ذلك شىء من الدكاء ، ولكنه ليس شرطاً أساسياً فى الثقافة ، كما أن الثقافة ليست شرطاً أساسياً فى الدكاء ؛ فقد يكون الذكى طفلاً لم تصل معارفه إلى حد الثقافة التامة الشاملة ؛ وقد يكون المثقف متوسط الدكاء ، فالثقافة إنما تتطلب المواهب المتعادلة لا الدكاء المفرط

* * *

ولنتقل بمد هذه الالامة العامة إلى البحث في ذلك العامل الأساسي وهو التحصيل، لنتعرف حدوده العامة والخاصة، ولنصل إلى تحديد الشعب العلمية التي يضمنها وإلى ما يجب تحصيله من كل منها، أي أن نتعرف المحيط الثقافي وعمقه هل الثقافة هي الإلمام بكل شيء، أو التوفر على بعض العلوم وإتقانها؟

ليس هذا ولا ذلك هو ما تتطلبه الثقافة، فالإلمام بكل شيء يصل إلى أن تكون المعلومات سطحية، ومتعمق في علوم محدودة أو في علم واحد دون الإلمام بشيء آخر مما له في الحياة شأن، قصور... فالثقافة ليست بجزء لا ساحل له أو غوراً لا قرار له

وإذا كان كلا طرفي التحصيل: الإلمام بكل شيء، والتوفر على علم واحد، ليس مما يحقق الثقافة، فإذا عسى أن نسلك بالتعلم من السبل في التحصيل ليكون مثقفاً؟ يجدر بنا في هذه الصدد أن نحل المعضلة بطريقة نوفق بها بين الإلمام الشامل أو الاحاطة العامة وبين التعمق النافع مع الاعتماد عن التحصيل السطحي الأجوف غير الجدي، فمعرفة كل شيء لا تصل بنا إلى شيء، والتوفر على شيء واحد يعزلنا عن كل شيء

وهل معنى هذا أن نقول إن معرفة القليل من موضوع ما هي الثقافة، والتعمق فيه هو التخصص؟

إن الحل على هذا الأساس إنما هو حل على أساس الكم، وهذا لا يصل بنا إلى المطلوب. ولا ينبغي أن تكون الكثرة أو القلة في مقدار ما يحصله من المعلومات هي الأساس في الثقافة.

لعلنا إذا رجعنا إلى بعض ما سردناه في حقيقة الثقافة استطعنا أن نصل إلى الحل المنشود: فقد تبين من خلال ما أشرنا إليه أن الثقافة ليست صفة فردية، بل هي صفة اجتماعية تتصل بالمجتمع وشئونه، والمعلومات التي ترتكز عليها الثقافة هي ما كانت ذات صلة بالمجتمع، وهي التي تصقل في البيئة الاجتماعية. فالمجتمع عامل قوي في تحديد ما ينبغي أن يلم به الوطني المثقف من المعارف لكي يعيش عيشة صالحة ويشارك الأفراد في الرأي ويأدهم وجوه التفكير. وإن الاتجاه إلى المجتمع

يحدد لنا الطريق . على أنه يجدر بنا أن نعلم أن كل مجتمع تفرمه صفات و نزعات وتسيطر عليه وتوجهه توجيهاً خاصاً حيناً من الدهر . وقد تعصف الأحداث ويدور الزمن دورته فتبدل هذه النزعات وتتغير تبعاً لذلك وجهات النظر في الثقافة وفي المحيط العلمى الذى تنتزع منه مواد الثقافة :

ففى أوربا بعد عصر النهضة كانت الآداب القديمة اليونانية واللاتينية هى منبع الثقافة والمعرفة ولم يكن للعلوم شأن يذكر .

ثم نالت العلوم نصيبها من العناية والبحث وأصبحت ذات شأن فى البيئات التعليمية وأصبح الالام بالكون ومظاهره الطبيعة مما يرتبط به خير المجتمع وصارت العلوم عنصراً من عناصر الثقافة

ثم اتسع النطاق بتقدم الزمن وتدرج المدنية فى نهوضها ، وسارت الثقافة تابعة لذلك تستمد حدودها من هذا المحيط الاجتماعى المتجدد طبقاً لسنه الرق ، وترتكز فى تخير عناصرها على محور ثابت وهو الصلة بخير المجتمع ، فإله ارتباط بهذا يدخل فى ميدان علوم الثقافة

ومن هذا يتبين أن القاعدة التى نستطيع أن نسترشد بها فى تخير مواد الثقافة هى حاجة المجتمع فى معاملات الأفراد والالام بما لا بد منه للحياة بين المجتمع ، مع استخدام ذلك استخداماً عاماً والانتفاع به فى شؤون الحياة

ويتجه كل شعب فى التحصيل الثقافى إلى الدخائر التى أنتجها المجتمع وتركها السابقون وتوفر على العناية بها الجيل الحاضر ، فهذه الدخائر تراث لاغنى عنه وحلقة اتصال بين الأفراد فى تعاونهم العقلى وتفاهمهم

وإن اختلاف الشعوب فى حياتها ونزعاتها وماضيها وتراثها العلمى ليوحي بشيء من التباين فى المحيط الثقافى لكل منها . غير أن ما هنالك من قدر مشترك فى الشعوب من صفات إنسانية ونزعات عقلية وميول عامة ومقاصد حيوية ، يجعلنا لا نبحم عن تحديد المواد الدراسية اللازمة لكل شعب ، وإن كان هذا التحديد لا يمنع من بعض التغير الطفيف مما تقتضيه الأحوال

والمواد التى تدرس للثقافة ينبغى أن تمكن الفرد من معرفة الأصول العامة للحياة فى المجتمع ومعاملة أفرادها . وهذا يشمل المواد الآتية :

اللغة - الفنون الجميلة - التاريخ والتربية الوطنية - الرياضة - العلوم الطبيعية - علم الحياة - الاقتصاد - طبقات الأرض - شيء من الفلسفة هذا فيما يتعلق بالمحيط الثقافي وما يتضمن من مواد علمية . فالنظر بمد ذلك هذا العمل الثقافي في كل علم من هذه العلوم

وإن القاعدة التي نشترشدها في ذلك هي بعينها التي روعيت في تحديد المحيط الثقافي ، وهي أن يلم الفرد بما لا بد منه للحياة في المجتمع من معارف لكي ينفع بها في الشؤون العامة وليتخذ منها عوناً على الحياة الصالحة ووسيلة لتبادل الرأي مع أئداده من أفراد المجتمع حتى تقرب وجهات النظر ويسهل التفاهم والتعاون على الخير ولستنا بصدد التفصيل الشامل لما يختار من العناصر في المواد المختلفة ، ولكننا نضرب بعض أمثلة تبين الاتجاه في الاختيار .

ففي دراسة موضوع في الطبيعة كالآلات البخارية لانتجه إلى دراسة التركيب التفصيلي العلمي لها بل نعرض للمحركات وأثرها في العمران والآلات التي تسير بالبخار أو بالزيت أو بالكهرباء وعلاقة ذلك بالصناعة والحياة في المدن والريف وأثره في رخاء الإنسان وصحته وخيره العام .

وفي موضوع كالمجالس المحلية لا نرى إلى التفصيل السياسي بل نتجه إلى البحث في الطرق التي تسير عليها هذه الهيئات في العمل وفي أثر ذلك في نظام المجتمع ومصالحه

وفي دراسة اللغة للثقافة العامة لا نرى إلى أن يتعلمها الفرد لكي يعلمها غيره بل ليتمكن بدراستها من النهوض الفكري والانساني ولينهم من ذخائر المجتمع ما يصله به وبأفراده حتى تكون وحدة التفاهم شاملة مشتركة

وتدرس الفنون الجميلة لا لتجمل الفرد فناناً بل لتنمي في نفسه حب الجمال والاعجاب بمظاهر الكون وبما نسقه ذوو الذوق السليم

وهكذا نجد أن الإعداد الثقافي إنما يرى إلى ما يجعل الحياة نافعة للجميع وسنعالج الموضوع من بعض النواحي المتصلة به في كلمة أخرى

عبد الحميد حسن

أسلوب المتنبي

للمؤلف عبد الوهاب محمود

المدرس بكلية الآداب

الأسلوب هو القالب الذي يُفرغ فيه الشاعر شعره ، والنوال الذي ينسج عليه الكاتب كتابته ، والطابع الذي يطبع به الخطيب خطبته أو القاصُّ قصته وهو صورة من النفس ، ولون للذهن ، ومראה للخلق ، بل هو كما قال بوفون : (Buffon) الأسلوب هو الرجل نفسه (Le style est l'homme même) وقال القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة :

وقد كان القوم يختلفون وتباين أحوالهم فترك شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعمر منطق غيره ، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ؛ فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ودانة الكلام بقدر دانة الخلقة ، فترى الجاني الجلف ، كثر الألفاظ ، معقد الكلام ، وعمر الخطاب ، حتى إنك لتجد صورته في ألفاظه ، وسحته في لهجته ؛ قال كسرى لحاجب بن زرارة : « يا حاجب ، ما أشبه حجر التلال بألوان صخورها ! » قال حاجب : « بل زئير الأسد بصولتها »

فالشاعر إذن يطبع الكلام بطابعه ويلونه بشخصيته ويصبغه بأصباغ نفسه ، فأسلوب المتنبي هو المتنبي نفسه . فقد كان ألواناً وأنماطاً . تبعاً لحالات طبعه وأنماط حياته . وتنوع مزاجه

كان أبو الطيب كما وصفه الواصفون : رجلاً ملء العين . قوياً بديناً ، جسيماً خليقاً ، عادي الخلق ، قوي الأساطين ، وثيق الأركان ، جيد الفصوص ، فيه غرابة في زيه . هذه هي أوصافه الجسمية

أما طابعه وأخلاقه فقد كان أبو الطيب بعيد الآمال ، كبير الطامع ، كثير الزهو بنفسه ، دائم الإعجاب بمواهبه ، وهو كما قال الحاتمي : قد التحف برداء الكبير

والعظمة ، يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وإن الشعر لا يقترب من عذبه سواء ،
ولا يرى أحداً إلا وهو يرى لنفسه مزية عليه . وكان قليل الميل إلى الهزل
والنزوع إلى اللهو والطرب ، إذ قلما يجتمع اللهو والألم في النفس الكبيرة .
الطموح :

وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعاب

أفيقا ، 'نمار الهم بنفسي الخمر' وسكرى من الأيام حببني السكر
تسر خليلي الدامة ، والذي بقلبي يأتي أن أسر كما سراً
وكان قد طمع في الملك وحن به جنونا ، وكان صريحاً لا يعرف المداراة ولا
المداجاة ، حاد المزاج ، مرهف الحس ، سريع التأثر ؛ إذا غضب اهتزت أعصابه
وثارت نفسه ، فأصبح كأنه زوبعة نائرة ، أو بركان فائر ، أو نار مندلعة
وكان شجاعاً مقداماً ، عاش متبرماً بالحياة ساخطاً عليها ، حاقداً للوك عصره
لأن الأيام لم تنله أمنيته . فالحياة في نظره حرب ضروس ، علاقة الإنسان فيها
بالإنسان علاقة المقاتل بالمقاتل ؛ والقوة في نظره هي أصل الأخلاق والفضائل ،
والسيادة هي غاية الحياة :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللثام

فلا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتك والبكر
وتضرب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والمسكر الجمر
وترك في الدنيا دويلاً كأنما تداول سم المرء أنعمه العشر
هكذا كانت أخلاق المتنبي : نزوع إلى الكفاح والنضال ، وبعد عن الضحك ،
وطبع صريح لا يتحرك إلا لمناظر الفخامة والروعة ، ولا يسحر إلا بأبهة العظمة
وشارات الصولة . وأكبر الظن أنه لم يعشق في حياته حتى يذله المشق ويخضد

من شو كته ، وبلين من شكيمته ، ويهذب من غروره ، ويسلس من قياده ؛
فبين أخلاق المتنبي وبين المرأة مجافاة ؛ وهو قد صرّح بذلك في شعره حيث يقول :

وترى المروّة والغُتوة والأبوّة في كلّ مليحة ضراً لها

هن الثلاث السانماتي لدي في خلوق ، لالخوف من تبعاتها
فهذه الأخلاق وتلك الطباع ترى ماثلة في أسلوب أبي الطيب شاخصة في شعره .
وإليها مراد جل محاسنه ، ومنها يصدر أكثر مساوئه

فأخلاق المتنبي أحد عوامل ثلاثة أثرت في أسلوبه . والعامل الثاني هو البادية ؛
فالمتنبي ابن البيد والفيافي . من أفق البادية نبت أسلوبه ، وفي جو البادية نما خياله ،
فهو أول مدرسة تلى فيها تعاليمه ، وأول بيئة سطرت آثارها في ذهنه ؛ عرّضت
عليه الحضارة طراوتها ونعومتها فلم تنزع به عن بدويته ولم تنسه حب باديته . والعامل
الثالث دراساته

فقد عُرف المتنبي بأنه لازم أهل العلم والأدب ، وأكثر من غشيان دكاكين
الوراقين ؛ فكان علمه من دفاترهم ؛ وقد رُزق حافظه قوية — وهي عماد الأدب —
قال أبو الفتح عثمان بن جني : كان المتنبي يحفظ ديوان أبي تمام والبحتري
ويستصحبهما في أسفاره ويمجدهما ، فلما قُتل توزعت دفاتره ، فوقع ديوان البحتري
إلى بعض من درس على وقد رأيت خط المتنبي وتصحيحه فيه .

فهو من حفاظ اللغة ورواة الشعر ؛ ليس هذا فقط ، بل قد نظر في كتب
الفلاسفة والمناطقة ، لاسيما أنه في جنب سيف الدولة ؛ حيث اتفق له هناك كلّ
ما يمين على النبوغ ونضوج القريحة .

نجد كل ذلك مسجلاً مسطراً في أسلوب شعره ، ونسيج بيانه . فأسلوب
المتنبي في جملته وتفصيله هو أسلوب القوة والمظلمة ، والرجولة والفتوة ،
لا أسلوب الضعف واللين ، والتوشية والرقّة .

فلألفاظه دويّ ومضاه ، كأنها أشخاص حية تتحدث إليك وتنطق وعليها
سمّابة ووقار ؛ أو كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلّاموا سلاحهم للطراد .
وتراكيه كأنها حصون من فولاذ أو قلاع من صوّان ، تقرأ شعره فتُحس

جلجلة الطبول وقصف الرعود ودوى المدافع وجرجرة السيول ، تملأ سميك ألفاظه ،
وتفيض بشديق كلماته ، وتلمح من خلال ذلك شخصية المتنبي قوية للكفاح
والنضال لا للاستخذاء والتخسع بالأقدام .

وهذا أثر من أخلاقه ولون من طباعه وظل من بداوته .
وأصدق ما يشاهد ذلك في وصفه للمبارك ؛ ونفخه بنفسه ومدحه لمن أحبه
وأخلص إليهم كسيف الدولة ، وفي أهاجيه التاريخيه كهجائه لكافور ؛ حتى في غزله ،
فهو — على أنه غزل فني صناعي — مملوء بالرجولة والزم المسدد والنفس
الآية العنيفة .

وحتى في الماني التي يقلد فيها غيره يأخذها ويكسوها من بروده الحسنة
وثيابه الصلبة .

قال أبو الشيص الشاعر :

لقد جرى الحب منى مجرى دى في عروقي
فقال المتنبي في نفس طويل وباع واسع وألفاظ ممدودة :
جرى حبها مجرى دى من مفاصلى فأصبح لى عن كل شغل بها شغل
وقال البحتري في وصف القلم :
تغنوا له وزراء الملك خاضعة وعادةُ السيف أن يستخدم القلما
أخذ المتنبي الشطر الثاني فقال بعد أن نسجه على منواله ، وسكب فيه روحه
الصاخبة :

حتى رجعت وأقلامى قوائلى المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدأ بعد الكتاب به فانما نحن للأسياف كالخدم
وقال دعبل في أسلوب ابن رقيق غزلى :
لاناخذنا بظلامتى أحداً قلبى وطرفى فى دى اشتراكا
وقال المتنبي :

وأنا الذى اجتلب النية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل

وقال أبو نواس في تواضع وهراة :

سنة المشاق واحدة فاذا أحبت فاستكن

فقال أبو الطيب وملاً به الأفواه وهز الأسجاع :

تذل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لا يذل ويخضع

وقال أبو نواس :

وكلت بالدهر عيناً غير غافلة بجود كفيك تأسو كل ما جرحا

أخذه أبو الطيب فقال :

تتبع آثار الرزايا بجوده تتبّع آثار الأسنة بالقتل

وقال أبو تمام :

غمرته الملا على كثرة الأهل فأضحى في الأفريقين جنباً

وقال أبو الطيب :

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حينما كانا

وقال ابن المعتز :

وما يُنقص من شباب الرجال يُرد في نهاها وألباسها

وقال أبو الطيب :

ليت الحوادث باعثنى الذي أخذت منى ، بجلى الذي أعطت وتجريبي

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وقال أبو تمام :

قريب الندى نأى المحل كأنه هلال قريب النور ناء منازلـه

وقال أبو الطيب :

كالشمس في كبد السماء وضوءها يمشى البلاد مشارقاً ومنارياً

وقال البحتري :

وإذا ما تنكرت لي بلاد أو صديق فأنى بالخيار

قال أبو الطيب وخلع عليه من مزاجه وقوة روحه لباساً متيناً :

إذا صديق نكرت جانبه لم تعني في فراقه الحيل

في سمة الخافقين مضطرب وفي بلاد من أختها بدل
وقال البحرى :

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسمى إليك النبر
وأبو تمام :

لو سمت بقمة لا عظام أخرى لسمى نحوها المكان الجديب
فيقول أبو الطيب :

تحاسدت البلدان حتى لو أنها نفوس لساو الشرق والغرب نحوكا
أما في نسيه وغزله فيقول :

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والحب جار على قلبي وما عدلا
والوجد يقوى كما تقوى النوى أبداً والصبر ينحل في جسمي كما ينحلا
لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا
بما يجفنيك من سحر صلي دنفا يهوى الحياة وأما إن صددت فلا

والتنبي في غزله خضع للمؤثرات الثلاثة : الأخلاق والبادية والدراسات
فأخلاقه صيرت غزله قوياً خشناً بعيداً عن الميوعة واللين والضعف والتأنت
أما أثر البادية في غزله . فانه درج فيه على مذهب شعراء البادية فهو القائل :
إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم
فلست ترى في أضعاف نسيه آثار نفس ذلها الهوى وأسمعها الحب ، فلا كب
حرى ولا قلب مقروح وإذا تنزل كان مثله الأعلى الفنى هُنَّ الأعراسيات
البدويات :

من الجآذر في زى الأعارب حمر الحلى والمطايا والجلابيب
إن كنت تسأل شكاً في معارفها فمن بلاك بتسديد وتمذيب
أزورم وسواد الليل يشفع لى وأنتنى وبياض الصبح يعزى لى
وأما أثر الدراسات في هذا الغزل فيمكن أن نعرف أنه غزل صناعى لا حقيقى
فهو في جلته صور قد صورها قبله كثير من الشعراء فاختر أبو الطيب منها
ما يلائم حياته : حياة رجل قائد حربى منكود الحظ سى الطالع تملوه الكآبة
ويتملكه الحرمان

وهنا من الحق علينا لأبي الطيب أن تنصفه فنقول : إنه وإن كان في غزله مقدّمات
لكثير من الشعراء ، مزدّداً ما اعتادوه من صورهم : كتشبيه القوام بالنصن ،
والوجه بالشمس أو القمر ، والشعر بظلام الليل — إنه مع ذلك له صور مخترعة
مفانئة ، تدل على عبقرية وصفاء قريحة ، وذوق فني بالغ ، من ذلك قوله :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر أيّ الظاعنين أشيع
أشاروا بتسليم فجداً بأنفس تسيل من الآماق والسم أدمع

أتراها لكثرة المشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب وردوا رقادي فهو لحظ الجباب

عزيز أسامن داؤه الحدق النّجّل عيائه به مات المحبون من قبل
فمن شاء فليظفر إلى فنظري نذير إلى من ظن أن الهوى سهل
وما هي إلا لحظة بعد لحظة إذا نزلت في قلبه رحل العقل

على أن هذه المقدمة من النسيب التي صحبت التنبي في كثير من قصائد المديح ،
قد يتركها أحياناً ويستبدل بها مقدمة فلسفية من الشعر الغنائي يث فيها أحلامه
وتجاريبه وشكواه . يشاهد هذا الأسلوب كثيراً في مدائحه لبدر بن عمار ،
ولسيف الدولة ، ولكافور ؛ والآن لقد حان أن ننقل القول على أسلوبه في المدح ،
وهو الباب الذي استغرق جل ديوانه . فأسلوب التنبي في المديح لم يكن أسلوباً
واحداً ، بل هو عدة أساليب ، تبعاً لاختلاف المقامات وتنوع الجالات والأزمات
النفسية التي كان يقع فيها

فتارة نجد أسلوبه في المدح لا تبدو عليه دلائل التعظيم ولا أمارات الصدق ،
بل هو مدح للضرورة الملحة والحاجة القاسية ، فيشيع في هذا النوع المبالغة
المعقولة ، والتشبيه الممتن ، وانحلال التكلف ، والفن البتذل ، والمقدمات الغزلية ،

والتراكيب السقيمة المنتقدة : كما في مدحه لجل من لقيهم في أول أطوار حياته من أهل أنطاكية وحلب واللاذقية ومنبج ، من صفار الأمراء الأعاجم وضماف الولاة والقضاة . وفي هذا النوع من الأسلوب يذكّر نفسه ويقتخر بمظمته وربما كان نصيبه هو من المديح أكبر من نصيب المدوح

وأحياناً نجده يقلع عن التقليد ويخلص للممدوح حيث وجد فيه مثله الأعلى الذى يتعشقه ، والرجل القوى الذى يتصوره . وبعد أن كان في أسلوبه الأول ومنهجه السابق يُنذر ويتوعد ويتكلف ويتصنع ، إذا به يقلل من التكلف ويكف عن التعميد ؛ فيصبح الأسلوب مشرقاً ، والبيان مستقيماً متيناً ، يترك فيه المقدمات الغزلية وينسى الفخر بنفسه ، إلا إذا أحس دس الدساتين وسماية الواشين . ومن هذا النوع مدحه لسيف الدولة ، فإنه قد بلغ فيه الذروة وسما فيه إلى القمة

وتارة نجده يعتمد أن يكون أسلوبه في المديح مؤلفاً ، فيصور آلامه ومصائبه ويصف دهره وأهله ، ويكشف عن نفسه وآمالها ، ويأتى بالأخيلة الخبيثة ، والمبالغات التهمكية ، والتصورات الخداعة ؛ فهو مديح أشبه منه بالهجاء ؛ وذلك كما في مدح كافور . غير أن هذا الأسلوب سهل كله ، خلو من الركاكة والسقم وضعف النظم ، ويمتاز هذا النوع بخصوبة الحكم وضرب الأمثال . ولنتكف للتمثيل لذلك بما يأتى من قصيدة في مدح كافور :

إنما يفخر الكريم أبو السكِّ بما يتنى من العلياء
تفضحُ الشمسُ كلما ذرَّتْ الشمسُ بشمسٍ منيرة سوداء
إن في ثوبك الذى المجدُ فيه لضياء يُزرى بكل ضياء
إنما الجلد ملبس ، وإبيضاض النفس خير من إبيضاض القباء
من لبيض الملوكة أن تبدل اللو ن بلون الأستاذ والسَّحناء
يارجاء الميون في كل أرض لم يكن غيرَ أن أراك رجائى

وهذه أبيات من أخيت المديح وآلم الهجاء ، لأن ذا اللون الأسود ليس أمرًا عليه من أن تذكر له الألوان ، ولا سيما الأبيض منها . وبضدها تتميز الأشياء .

هذا هو أسلوب المتنبي في المدح . على أن هناك أسباباً أخرى أتاحت
لأبي الطيب الإجابة في المدح وهو بجانب سيف الدولة :

(١) فإنه فضلاً عن أن المتنبي وجد في سيف الدولة الرجل العربي المستقل
الذى يعظم العرب ويحاسن القرامطة الذين يميل أبو الطيب إلى مذهبهم وعقائدهم ،
فأنه يتفق معه في المبدأ ، وهو البحث عن المجد من طريق الحرب والقوة ؛ فوجد
فيه المثل الأعلى الذى يصبو إليه ويهيم به .

(٢) ثم رأى أنه دخيل على شعراء سيف الدولة وهم أكثر ، فلا وسيلة للتغلب
عليهم إلا من طريق الشعر وهو كل بضاعته ، فاهتم أن يجيد ، وتحركت نفسه
للقول بماطفة صادقة وشعور طبيعى للمحافظة على هذا الرغد من العيش والترف
من النعيم .

(٣) ثم كثرة عيون النقاد حوله ومنهم سيف الدولة نفسه ؛ وليس من الهين
اليسير على نفس كنفس المتنبي أن تستسيغ النقد وتجزئ التنقص منها وتنام على
الخط من قدرها .

على أن شدة التحرى هذه وحمل النفس على الإبداع والاختراع والترفع عن
الطيران فى جو الشعراء الذين حوله ، أوقعه فى التعمق والإغراب والإيهام
والغموض لقصور الألفاظ واتساع المعنى .

أما فى الهجاء فله أسلوب واحد موجه ، ولسان مر ، تبدو فيه نفسه النارية
وخلفه الصريح وشجاعته وعصية مزاجه ، فلا يدارى ولا يصانع ، وهو صورة
لأخلاقه إلا أنها عكسية مقلوبة ، إذ كان يهجو أعداءه بضد ما كان يمدح به أوليائه .
وبعكس ما يراه هو مثلاً أعلى الرجولة ، وصورة صادقة للفضائل ؛ فهجاؤه أظهر
أثر للطبع والخلق والزاج ؛ وهو صورة لصدق الماطفة وحرارة النفس المحرومة
الحاقدة الساخطة . وقل أن نجد فيه تمقيداً أو ركة أو هلملة فى النسيج أو تكراراً
فى الحروف مما عيب مثله عليه ، وهو متأثر فيه بأسلوب ابن الرومى من حيث
ذكر النقائص الخلقية والصفات الجسمية .

أما أسلوب المرائى عند أبي الطيب فهو من الأساليب التى تحمل شارته وتلح عليها توقيمه

فمادة الشعراء فى مرثيتهم أن تفيض عيونهم بالدمرات ، وقلوبهم بالحسرات وصدورهم بالزفرات ، ونفوسهم بالأنين ، وألفاظهم بالدمع السخين ، كما فى شعر الخنساء مثلاً أو ابن الرومى فى رثاء ولديه .

أما شاعرنا فى رثائه — وقد رثى عشرة أشخاص — فقد كان حزنه حزن فيلسوف ، وبكاؤه بكاء قائد حربى ، وألمه ألم متمرد ، وحسرتة حسرة عظيم ساخط : ما خضع ولا ذل ، ولا استسلم ولا ضعف

هذا الأسلوب نجده فى رثاء من يهمهم أمره ويمتتون إليه بقرابة أو صلة : كـرثائه فى جدته ، وأم سيف الدولة وأخته وابنه ، فقد ملأ رثاءهم بالسخط على الحياة والتبرم بالدنيا وأهلها وبالحكم البالغة والوصف القوى

وله أسلوب آخر فى المرائى يظهر عليه التقليد والصناعة والضعف ، وفراغ القلب من الألم والنفس من الحزن ، وذلك لأول عهده بالرثاء ؛ فقد رثى ابن إسحق التنوخى ولم يباغ عمره العشرين حينذاك بقوله :

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب فى التراب تمور
ما كنت آمل قبل نشك أن أرى رضوى على أيدي الرجال تسير
خرجوا به ولكل باك خلفه صمقات موسى يوم دك الطور
والشمس فى كبد السماء مريضة والأرض واجفة تكاد تمور
أما فى رثاء والده سيف الدولة ، فاقرأ له :

نمد المشرفة والموالى وتقتلنا المنون بلا قتال
نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال
أما فى حلبة الوصف فقد كان أبو الطيب مجلياً ، ولا سيما فى وصف المارك ؛ إذ كان لروحه وطبعه الأثر البالغ فيها ؛ فشعره فى وصف الحروب صورته الناطقة أو هو كما قال ابن الأثير :

إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها . وقامت أقواله للمسامع مقام أفعالها .

فتحس وأنت تقرأ شعره صدق الشعور والمقدرة الفنية في التصوير ، والافتنان في الوصف ، والدقة في الخيال

وليست إجادة أبي الطيب في وصفه للمبارك فحسب ، بل هو قد أحسن في وصف البادية كذلك : من صحارى وجبال ، وخيل ونياب ، ووفق في وصف الحيوانات : من ظباء وكلاب سيد وآساد .

وهو في هذه الأوصاف يظهر في أسلوبه أثر البادية أولاً ، حيث شاع فيه الغريب من اللفظ ، ثم أثر ذهنه وحاسته الفنية ثانياً ، حيث رزق أبو الطيب دقة الملاحظة ، والمقابلة بين الأضداد والألوان . فما جاء في وصف أسد في غيله وأجته :

في وَحْدَةِ الرِّهَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَمُرُّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَا
يَطَأُ الثَّرَى مَتَرَفًّا مِنْ تَبْهٍ فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجْسُ عَلِيلاً
وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوخِهِ حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إِكْلِيلَا

وله في وصف ذقن الأيائل وهو نوع من التيوس الجبلية :

لَهَا لِحْيٌ سَوْدٌ بِلا سَبَالٍ تَصْلُحُ لِلْإِضْحَاقِ لَا لِالْإِجْلَالِ
كُلُّ أَثْمَثٍ نَبَتْهَا مِتْفَالٍ لَمْ تُنْفَذْ بِالْمَسْكِ وَلَا النُّوَالِ
تَرْضَى مِنَ الْأَدْهَانِ بِالْأَبْوَالِ وَمَنْ ذَكَرَ الْمَسْكَ بِالْأَمَالِ
لَوْ سُرَّحَتْ فِي عَارِضِي مُحْتَالٍ لَمَدَّهَا مِنْ شَبَكَاتِ الْمَالِ

ولنوازن بين وصف البركة للبحري ، ووصفه للمتنبي حتى يبين لنا من هذه

الموازنة مبلغ أثر البادية في وصف المتنبي : يقول البحري :

يَا مَنْ رَأَى الْبَرَكَةَ الْحَسَنَاءَ رَوَّيْتُهَا وَالْأَنْسَاتِ الَّتِي لَاحَتْ مَعَانِيهَا
مَا بِالْ دَجَلَةِ كَالْفَيْرِ تَنَافَسَهَا فِي الْحَسَنِ طَوْرًا وَأَطْوَارًا تَبَاهِيهَا
كَأَنَّ جَنِّ سَلِيمَانَ الَّذِينَ وَلُوا إِبْدَاعَهَا فَأَدَقُوا فِي مَعَانِيهَا
تَنْصَبُ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مَعْجَلَةً كَالْحَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا

كانما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبيكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجت الشمس أحيانا يصاحكها وريق الغيث أحيانا يياكها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا، حسبت سماء رُكبت فيها
هذه هي الاخيلة الحضرية التي تناسب حضارة القرن الرابع الهجرى .
والمتنبى يقول :

والموج مثل الفحول مزبدة تهر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها اللجج
كانها والرياح تضربها جيشا ونعى : هازم ومنهزم
كانها - في نهارها - قر حف بها من جناها ظلم
فهي كإيئة مطوقة جرد عنها غشاؤها الأدم

بقي أن نصف أسلوب أبي الطيب في الحكم

أسلوبه في الحكمة والمثل أسلوب سهل مشرق ناصع لا التواء فيه ولا اعوجاج
والفاظه موسيقية عذبة ، نجد فيه كثيراً من المقابلة بين الصفات يزيد في جمالها
الفنى ويكشف عن أغراضها ومعانيها ، وهو من صنفه قد بدت فيه حاسة التعميم
والتمثيل وصوغ المعاني في صورة كلية موجزة مختصرة ، وأظهر شيء في حكمه أنه
صبغها بصبغة نفسه فصدرت وكأنها مراسيم ملكية من غير أن يجهد لها أو
يسوق الحجاج والأمثلة والشواهد على صحتها ؛ فهو يخالف المعرى في ذلك ؛ فالمعرى
يتردد ويكثر من الموازنة والتحليل ، أما المتنبى فيسوق حكمه في لهجة قاطعة
لا تقض فيها ولا إبرام ولا هواذة ولا دوران ، بل هو كالواعظ المزمتم يلقى على
الناس عظامه من فوق منبره في صرامة وحزم كما يصنع الأستاذ مع تلاميذه
والشيخ مع مريديه اعتداداً منه بنفسه ووثوقاً منه برأيه . والسرف في خلود حكمته
هو أسلوبها ، وما في صياغتها من قوة وما في بنيانها من متانة ، ولأنها عملية
أو أكثرها عملي يصادفها الإنسان في حياته كل يوم ويلقها من حوادث الأيام
وعبر الزمان ، يقول :

واحتمال الأذى ورؤية جانبه غذاء تضيء به الأجسام

خليك أنت لا من قلت خلى وإن كثر التجمل والكلام

لا تمذّل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

وكن على حذر للناس تستره ولا يفرنك منهم تفر مبتسم

وكل امرئ يولى الجميل محب وكل مكان ينبت العز طيب

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

خاطب العز في لظى ودع الدلّ ولو كان في جنان الخلود

وهو من قول الناس : النار ولا العار .

وانظروا إلى قول عنتره هذا المعنى ولكنه الصياغة مختلفة والأسلوب

ليس واحداً :

ماء الحياة بذلة كجهم وجهم بالعز أطيب منزل

فمن المتنبي

المتنبي فنان مُبدعٌ ، ومصور ماهر ؛ فقد رزق دقة في الحس ، وإرهاقاً في

الأعصاب ، ورقة في الشعور ، وقدرة على التصوير ، وخصوبة في الخيال ؛ وهذه

الخصائص جديرة بأن تخلق منه رجلاً فناناً

وفنه ممثل في الأخيلة البديعة والموسيقى المدوية ، وفي حسن التنسيق وجمال

التقسيم ، والمقابلة بين الألوان

روى أبو الفتح ابن جني قال : قرأت على أبي الطيب قوله :

وقد سارت الأجفان قرحاً من البكا وصار بهاراً في الخدود الشقائق

فقلت : (قرحى) من غير تنوين ، فقال لي المتنبي : إنما قلت أنا (قرحاً) لأنى قلت

بمدُّ يهراً ، فهو إذن كان يقصد إلى هذا الجرس في الألفاظ ، وذلك التقسيم في
الأجزاء ؛ ومن فنه قوله يصف ذكاء بدر بن عمار :

هان على قلبه الزمان فما بين فيه غم ولا جدل
تعرف في عينه حقائقه كأنه بالذكاء مكتحل
أشفق عند انتقاد فكرته عليه منها ، أخف يشتمل

وقوله يصف تمايل الرماح :

تبيت رماحه فوق الهوادي وقد ضرب العجاج لها رواقا
تميل كأن في الأبطال خمرا عُلِّلنَ بها اضطباحا واعتباقا

وفي هذه القصيدة يقول :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا
ومن التصوير المعجب قوله يصف نفسه بالآلغة وأنه لو عاد شابا لما هان عليه
مفارقة الشيب إلا وقلبه موجه وعينه بالكية :

خُلِّقْتُ أَوْفَا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لفلرقت شبي موجه القلب بالكية
ووصف موقف وداع وصف فنان مصور ، آله حساسة صادقة الحسن :
وجلا الوداع من الحبيب محاسنا حسنُ العزاء وقد جُلِّنَ قبيح
فَئِدَةٌ مَسْلَمَةٌ وطرف شاخص وحشا يذوب ومدمع مسفوح

واخترع فأبدع في تصوير القلب وقد تواردت عليه الأحداث وتكاثرت عليه
المصائب وتوالت فوق رأسه الرزايا حتى أصبح لا يحس الماء ولا يبالى حزنًا
يقول الخزيمي :

لقد وقرتني الحادثات فما أرى لنازلة من ربها أتوجع
وقال أبو الطيب :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وقد وصف ضرب السيوف للرقاب ، وطعن الرماح للقلوب ، فقال :

كَأَنَّ الهَامَ فِي الهِجَا عَيُونَ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رِقَادٍ
وَقَدْ صُفَّتِ الْأَسِنَّةُ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطُرُنْ إِلَّا فِي الْفَوَادِ
وَانْظُرْ إِلَى تَصْوِيرَةِ الْمَوْتِ تَصْوِيرًا لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ
وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصَهُ يَصُولُ بِلَا كَفٍّ وَيَسْمَى بِلَا رَجُلٍ
أَمَّا الْمَوْسِيقَى فَاُمْتَلَأَتْ كَثِيرَةً مِنْهَا :
نَصِيكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ

فَالْمَوْتُ أَعْذَرُ لِي ، وَالصَّبْرُ أَجْلٌ بِي وَالْبَرُّ أَوْسَعُ ، وَالْدُنْيَا لِمَنْ غَلَبَتْ
فَقَرُّ الْجَهْلُولِ بِلَا قَلْبٍ إِلَى أَدَبٍ فَقَرُّ الْحَمَارِ بِلَا رَأْسٍ إِلَى رَسَنِ

فَيَا شَوْقَ مَا أَبْقَى ، وَيَا لِي مِنَ النُّوَى وَيَا دَمْعُ مَا أَجْرَى ، وَيَا قَلْبَ مَا أَمْسَى !

ضَاقَ الزَّمَانُ وَوَجَّهَ الْأَرْضَ عَنْ مَلِكٍ مَلَأَ الزَّمَانُ وَمَلَأَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
فَنَحْنُ فِي جَدَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ وَالْبَرُّ فِي شُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي خُجَلٍ
وَلِنَقِفَ مِنَ الْبَيْتِ الثَّانِي مِنْ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ وَقِفَةً قَصِيرَةً لِنَتَبَيَّنَ مَا فِيهِ مِنْ صُورٍ
مُتَقَابِلَةٍ ، وَأَضْدَادٍ مُتَمَاكِسَةٍ : الْجَذَلُ لَهُمُ وَالْوَجَلُ لِلرُّومِ ، وَالشُّغْلُ فِي الْبَرِّ وَالْخُجَلُ
فِي الْبَحْرِ لِنَدَى يَدِيهِ

وَلِصُورِهِ طَابَعَ خَاصٌ تَعْرِفُ بِهِ ، وَذَلِكَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَا جُلِعَ بَيْنَ الْأَلْوَانِ الْمُتَضَادَّةِ ،
وَالصِّفَاتِ الْمُتَقَابِلَةِ ؛ فَهُوَ كَالصُّورِ الْمَاهِرِ ، يَصُورُ الصُّورَةَ بِاللَّوْنِ الْأَسْوَدِ ، ثُمَّ يَجْلِلُ
حَوَاشِيَهَا بِاللَّوْنِ الْأَبْيَضِ ، لَتَبْدُو الصُّورَةُ زَاهِيَةً زَاهِرَةً . أَوْ لَيْسَتْ الْعَيُونُ الَّتِي فِي
طَرَفِهَا حَوَارٍ هِيَ تِلْكَ الَّتِي اشْتَدَّ سَوَادُهَا ، وَاشْتَدَّ بَيَاضُهَا فَكَانَتْ قَائِلَةً سَاحِرَةً ؟
قَالَ يَمْدَحُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ :

يَا مَلِيكَ الْوَرَى الْمَفْرَّقَ حَيًّا وَمَمَاتًا فِيهِمْ وَعِزًّا وَذَلَا
. قُلْتُ اللَّهُ دَوْلَةً سَيْفُهَا أَنْتَ حُسَامًا بِالْكَرَمَاتِ مُحَلَّلًا

فيه أغنت الموالى بذلا وبه أفت الأعادى قتلا
 وإذا اهتز للندى كان بحرا وإذا اهتز للردى كان نصلا
 وإذا الأرض أظلت كان شمسا وإذا الأرض أمحت كان وبلا
 والطابع الثانى : أن خياله أكثر ما تستمد أجزاؤه من الحروب والمعارك
 والأسنة والرماح والطمع والضرب

غير أن هذا الفن عند المتنبي هو من نوع واحد ولون مطرد ؛ إذ كله مستمد
 من حياة مظلمة الجوانب كامدة الألوان ليس فيها أثر للبشاشة ولا بريق للابتسامة .
 لهذا كانت روح أبى الطيب التى سكبت فى هذا الفن روحا متقبضة مكافئة لم
 ترزق لطف مدخل ، ولا حسن احتيال ، ولم توهب رقة ملمس ولا نمومة مس ؛
 بل هى تستقبلك بالرماح والنصال حينما واجهتها ، وبالماعل والحصون أينما صادفها
 وبالزوابع والمواصف كلما لقيتها ، وبالسخط والحق أنى حادثتها وكاشفتها ؛ فضحكها
 غليظ خشن ، وصوتها مدو مفزع

وتركك فى الدنيا دويكا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

لذا كره كثير من الناس أسلوب أبى الطيب ، ونفروا من فنه وشعره ، وثقل
 عليهم ظله ، وغلظ عليهم طبعه . هذا إلى أن شعره مستغرق فى نفسه مشحون
 بشئونة الخاصة ، ليس للإنسانية فيه نصيب ، ولا للمواطف المشتركة العامة منه قسط
 وأغلب الظن أن الذى أفسد على أبى الطيب فنه وبنّض إلى الناس جماله هى
 تلك العوامل الثلاثة : طبعه وبيئته ودراساته

أما طبعه فما فيه من عناد ، وما به من غرور ، قد حمله على ألا يهذب شعره
 ولا يقبل تنقيحه . وكبرياؤه عن التقيد بما يتقيد به الشعراء عادة ، وثورته على كل
 مألوف ، واحتقاره لكل تقليد ؛ ومزاجه النارى وأعصابه المتهبة ، وشذوذه فى كل
 شئ -- دفع به كل هذا إلى أن يأتى بالكلمات كيفما اتفقت ، ويصوغ البيت فى أى
 صورة وقعت . وزيادة منه فى عناده للنقادين وأغاظته لعملاء اللغة والنحويين يعيث
 كما يشاء ، فيقدم ويؤخر ، ويحذف ويحشو ، فيقع فى تكرير الحروف المطردة النغم

ويرى بالقافية المقدمة يختصم في فهمها الناس .

أنا ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
وها هو مثل يثير الضحك ويمثل لنا عناده وغروره . قال من قصيدة يمدح
بها سيف الدولة :

أَقِلْ أَنْلِ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدْ
زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفْضِلْ أَدْنِ سُرَّ صِلْ

ولما أنشد هذا البيت رآهم يمدون الفاظه فقال وزاد فيه :

أَقِلْ أَنْلِ أَنْ صُنِ احْمِلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدْ
زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبْ اغْفِرْ أَدْنِ سُرَّ صِلْ

فرآهم يستكثرون الحروف فقال :

عِشْ ابقِ اسْمُ سَدُّ قَدْ جُدْ مَرِ ائِنَّ رِفِ اسْمِ نَلْ
غِظْ اِرْمِ صِبْ اَحْمِ اغْزُ اسِبْ رُغْ زَعْ دِلْ اُنْ نَلْ

أفبعد هذا شذوذ ووراء هذا حق ؟

أما بيئته ، وأعنى البادية ، فهي صاحبة الأثر في استخدام الألفاظ الغريبة
والكلمات الخشنة النافرة التي لا تلائم ذوق القرن الرابع الهجري

أما دراساته فقد أوقفه تقليده لبعض الشعراء الذين أولع بهم في الإغراب
والتنقيب عن الوحش من حكم الجاهلية والتورك على الصيغ الشاذة والتراكيب
الجافة والتحدائق في الأساليب ، والأكثر من الجناس والمقابلة . وأستاذة في
ذلك أبو تمام .

ثم دراسته للفلسفة والعلوم جملة يدخل ألفاظ المصطلحات العلمية في الأساليب
الشعرية ويستخدم التراكيب المنطقية . قال :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
فقليل : تخلصُ نفسُ المرءِ سائلةً وقيل : تشرَّكُ جسمُ المرءِ في العطبِ

من اقضى بسوى الهندى حاجته أجاب كل سؤال عن هل بل

ولا واحداً فى ذا الورى من جماعة ولا البعض من كل ولكنك الضيف
ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف
وهناك هنات أخرى عرف بها أسلوبه نكتفى عنها بما ذكرناه

وأظهر الخصائص فى تراكيه الأكثر من استخدام أسلوب القصر :
وما الدهر إلا من رواة قصائد * إنما التهئات للأكفاء * إنما تنجح المقالة فى المرء
وتفسير ذلك سهل ، فهو أثر من الوثوق بالنفس والاعتداد بالرأى ، أو صورة من
صور المبالغة

والخاصة الأخرى استخدام التصغير فى أساليب الهجاء ، وهذه صورة لحق
النفس والاستخاف والتهكم :

أولى اللثام كوفير بمعدرة فى كل لؤم وبعض المذر تفنيد

ونام الخويدم عن ليلنا وقد نام قبل عسمى لا كرى

أذم إلى أهل الزمان أهيله فأعلمهم قدم وأحزهم وغد
وبعد فهل وفق المتنبي وأجاد ؟ نعم أجاد كل الإجابة فحاسنه ترى على مساوئه ،
وجال أسلوبه يزكو على قبيحه . إلا أن الذى أظهر تلك المساوى وكبر من تلك
الهفوات ، المتنبي نفسه ، فتماظه وكبره وغروره وتماليه كثر من حساده فأخذوا
يحصون عليه السيئات بحق وبغير حق ، ويجسمون الهنات منصفين تارة وغير
منصفين أخرى

أما فى الحق والإنصاف فقد ظفر المتنبي الظفر كله بسلامة المعانى وجمال الخيال
وقوة التراكيب ، وإن خلا من جمال التوشية ومحاسن التطرية ونومة الحضارة :
ما أوجه الحضرة المستحسنات به كأوجه البدويات الراعيب
حسن الحضارة محبوب بتطرية وفى البداوة حسن غير محبوب
أفدى طباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
عبر الرهائب صمودة

الفكاهة في الأدب

بقلم أحمد هاشم عطية

المدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

إن في طبيعة الانسان ، ميلا إلى التأنيس والتفرج ، تتمثل مظاهره عادة فيما يرسم على ثغر المتهلل من الابتسام والتبلج عند الشعور بلطف النادرة والاستحسان . لا تتضمنه الملاحظة الفائقة من لطف الانطباق على ما يستخف النفوس إلى الفرح . ولقد جمل الله ذلك المظهر من السرور من خواص الانسان المتميز بقوة العقل والمنطق ، وإن كان بمض العلماء يرى أن غيره من الحيوان الملهم ، قد يصل أحيانا إلى ما يشبه الإعجاب والضحك ، ولكن المعروف أن الله سبحانه وتعالى قد آثر بني آدم بهذه النعمة التي أضافها في الذكر إلى نفسه وجعلها معادلة للحياة كما جمل البكاء بإزاء الموت في قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » والضحك واللعب إذ وقعا موقعهما ، وحسن اختيار الموضع اللائق بها كان اللعب جذاً والضحك وقاراً ، وصار كلاهما قسطاً ضرورياً لمعالجة البدن وجمام النفس والاستعداد لاستئناف ما يتحملة العاملون من تكاليف الحياة وهم على أهبة من النشاط والمضاء

ولقد ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومزح وفرح وضحك الصالحون وفرحوا .

وكان يوحنا وشمعون من الحواريين . وكان يوحنا لا يجلس مجلساً إلا ضحك وأضحك من حوله ، وكان شمعون لا يجلس في مجلس إلا بكى وأبكى من حوله فقال شمعون ليوحنا : ما أ أكثر ضحكك ! كأنك قد فرغت من عملك ، فقال له يوحنا : ما أ أكثر بكائك ! كأنك قد بيئت من ربك ، فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام : إن أحب السيرتين إلى سيرة يوحنا . وسمى العرب ذوائبهم وأجوادهم بالطلق

والضحك والضحك والوضاح وبسام المشيات . ولو كان الضحك نقصاً لما أضافه الله في الذكر إلى نفسه ولما وضمه في معرض المنة على عبادة في الآية السابقة تختلف الأمم وأجيال البشر في مضاميكها ونوادرها . وللأوطان الإقليمية وللآداب العامة وطرق الاكتساب وضروب الحرف وأنواع الصناعات أكبر أثر في تأليف هذه النكات ، حتى لقد تمد الملححة الحارة في قوم ، باردة شديدة البرودة عند آخرين .

وأعظم البيئات التي تنشأ في هذه الدعابات هي بيئة الفراغ الياسير من متأدبي الحواضر في الغالب الذين يأخذون بحالهم على أفواه الدروب أو في دور من يتملحون بسمرهم وجمال نوادرهم من الخلفاء والأمراء وذوى النعمة . ولقد حفلت الأمصار العربية في أزمان مختلفة بكثير من أولئك الفراغ وحلة النادرة والتكسبين بالسمر من طبقات الرواة والأدباء والشعرا والفنيين وأصحاب الأعاجيب وأهل الصناعات المختلفة ، وملئت بملحهم ونوادرهم المبسوطات العربية من أنهار كتب الأدب .

وأول من تندر وتكسب بالنادرة في الإسلام الفاضل بالمدنية ، وأشعب بمكة ، ولم يتورع التقي ابن الحوزي عن جمع النوادر لطوائف مختلفة من الناس في كتاب سماه « الوشى في النوادر » ، وألف الجاحظ كذلك رسائل مختلفة ونسج على منوالها كثير من المتقدمين والمحدثين ، وكان من أشهر من ألف في ذلك الباب في عصرنا المغفور له الشيخ حسن الآلاتي ، فقد وضع في المجون والفكاهات كتاباً من ثلاثة أجزاء سماه « ترويح النفوس ومضحك العيوس » .

وما نحن أولاء نشير إلى بعض ما استملحناه من جبهة ما عثرنا عليه في مطالعاتنا المختلفة من هذه النكات ، ونبدأ ببعض ما أثر من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن بعض أصحابه ومن أتى بعدهم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول حقاً :

أنته مجوز أنصارية ، فقالت : يا رسول الله ، ادع الله لي بالمنفرة ، فقال لها : أما علمت أن الجنة لا يدخلها مجوز ؟ فصرخت المرأة ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليه وسلم ، وقال لها : أما قرأت قوله تعالى : « إنا أنشأناهم إنشاء نجملناهم أبكاراً عرباً أتراباً » ؟ أي أنها ستكون شابة حينئذ .

ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أعرابي قد صلى صلاة حفيفة فلما قضاها قال : اللهم زوجني بالحرور العين ؛ فقال عمر : يا هذا أقلت المهر وأعظمت الخطبة وكان نعمان من أصحاب رسول الله البدرين مشهوراً بالمزاح . خرج مرة مع أبي بكر الصديق إلى بُصرى وكان في الحلة سوسيط ، وهو بدوى أيضاً ، وكان سوسيط على الزاد ، فجاء نعمان وقال له : أطعمني ، قال لا ، حتى يأتى أبو بكر . فقال نعمان : والله لأغيظنك ، وجاء إلى أناس جلبوا ظهراً فقال : ابتاعوا منى غلاماً عربياً فارهاً إلا أنه دعاء له لسان لعله يقول : أنا حر . فإن كنتم تاركيه فدعوه لا تفسدوا على غلامى . قالوا : بل نتباعه منك بمشر قلائص . فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلمها ثم قال : دونكم هذا هو . فقالوا : قد اشتريتك ، فقال : سوسيط هو كاذب أنا رجل حر فقالوا : قد أخبرنا بذلك . ووضعوا في عنقه حبلاً وذهبوا به ، فجاء أبو بكر رضى الله عنه فأخبر بذلك فذهب هو وأصحابه فردوا القلائص على أربابها وأخذوه وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالقصة فضحك منها حولا

وسمع أبو الأسود الدؤلى وكان بخيلاً ، مسكيناً يقول : من يطعم الجائع ؟ فقال : على به ، فلما جاء أمر له بطعام ، فلما أكل وذهب ليقوم قال له أبو الأسود : إلى أين ؟ لتزعج عباد الله كما أزعجتى ! أخرجوه في الأدهم ؛ فبات مقيداً حتى الصباح قيل لأشعب : قد لقيت رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو حفظت أحاديث تتحدث بها ! فقال : أنا أعلم الناس بالحديث . فقيل له : حدثنا ، قال : حدثني عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : خلتان لا يجتمعان في مؤمن إلا دخل الجنة... ثم سكت ، فقيل له : هات ما الخلتان ؟ قال : نسي عكرمة إحداها ونسيت أنا الأخرى .

قال أشعب : جاءتني جارية بدينار وقالت : هذا وديعة عندك ، فجعلته بين الفراش ، فجاءت بعد أيام وقالت : بأبى أين الدينار ؟ فقلت : ارفى الفراش وخذى . ولده فإنه قد ولد . وكنت قد تركت إلى جنبه درهماً ، فأخذت الدرهم وتركته .

الدينار ، وعادت بمد أيام فوجدت معه درهما آخر فأخذته ، وفي الثالثة كذلك ، وجاءت في الرابعة ، فلما رأيته بكيت ، فقالت : مايبيك ؟ قلت : مات دينارك عند الولادة ؟ فقالت وكيف يكون للدينار ولد ؟ فقلت لها : تصديق بالولد ولا تصديق بالولادة ! !

وغضبت سكينه بنت الحسين بن عليّ على أشعب فخلفت لتحلقن لحيته ، ودعت بالحجام ؛ فلما تناوله ليحلق له قال : انفخ أشداك حتى أتمكن منك ، فقال له أشعب : يا عدو الله ، أمرتك أن تحاق لحيتي أو أمرتك أن تعلمني الزمر !

وجلس بعض المتشبهين بالقضاة على دكان حانوت لرجل يتنخس في الدواب فطبق الشيخ باب حانوته بمأتمته وطيلسانه ، وحضر إليه رجل من صناع الكلام فقال له : أبنی حماراً ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ، وإذا كثرت الزحام ترفق ؛ إن أقللت علفه صبر ، وإن أكثرته شكر ، فقال له النخاس : والله ما أجد في الناس حماراً بهذه الصفة ؛ ولكن اصبر ، فإن مسح الله هذا الجالس حماراً ابتعته لك ، وأصبحت حاجتك إن شاء الله .

وقال إبراهيم بن سبابة المنفي لبيشار الأعمى : ما سلب الله من مؤمن كرميته إلا عوضه عنها إما الحفظ والدكاء ، وإما حسن الصوت ؛ فما الذي عوضك من عينيك ؟ قال : فقد النظر إلى بغيض مثلك .

خرج المهدي للعید فقلبه فرسه حتى أنهى به إلى خيباء أعرابي ، فقال : يا أعرابي هل من قرى ؟ قال له نعم ، وأخرج له فضلة من مئة فأكلها وفضلة لبن فسقاه ، ثم أتى له بشراب فسقاه قعباً ، فلما شرب قال أندري من أنا ؟ قال لا والله ، قال أنا من خدم الخاصة ، قال بارك الله في موضعك ، ثم سقاه آخر ، فلما شربه قال : أندري من أنا ؟ قال زعمت أنك من خدم الخاصة ، قال : بل أنا من قواد أمير المؤمنين ، فقال له الأعرابي : رجبت بلادك ، وطاب مرادك ومرادك ، ثم سقاه قدحاً ثالثاً فلما فرغ منه قال يا أعرابي أندري من أنا ؟ قال زعمت أخيراً أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال لا ولكني أمير المؤمنين ، فأخذ الأعرابي الشراب وأبمد وقال - والله لئن شربت الرابع لتقولن إنك لرسول الله ! فضحك المهدي ثم أحاطت بهم الخليل

فنزّل أبناء الملوك والأشراف ، فطار قلب الأعرابي فقال له المهدي : لا بأس عليك .
وأمر له بصلة ، فقال : أشهد أنك صادق ، ولو ادعيت الرابعة لصدقتك !
ورفع قهرمان لبشار في حسابه الشهري : جلاء امرأة بمشرة دراهم ، فقال
بشار : يا لله ؛ جلاء امرأة أعمى بمشرة دراهم ! والله لو صدثت عين الشمس ما كان
جلاؤها على الله عشرة دراهم .

ورأى بعضهم أعمى يحمل على كتفه جرة ، ويمسك بيده الأخرى مصباحاً
مضاء ! فقال له : يا هذا ، أنت أعمى فلم تحمل هذا المصباح ؟ فقال : حتى لا يلتقاني
أعمى البصيرة مثلك فيمتر بي .

ولزم رجل من الثقلاء دار الجاحظ ، وألح عليه في كتاب شفاعته لرجل يعرفه
حتى أعياه وأبرمه ؛ فكتب له الجاحظ كتاباً ، فأخذه الرجل ، فلما خرج فضه
فاذا فيه : « كتابي إليك مع من لا أعرفه ولا أوجب حقه ، فإن أنت قضيت حاجته
لم أحمذك ، وإن رددته لم أذمك » فعاد الرجل إلى الجاحظ ، فقال له : لا بأس عليك
فهذه علامة بيني وبين المكتوب إليه إذا أردت العناية بإنسان ؛ فقال الرجل :
إذن فقطع الله لسانك ، وأعمى بصرك ، وقصم صلبك ، فقال له الجاحظ : لماذا ؟
فقال له الرجل : لا بأس عليك ، فهذه علامة بيني وبين الله إذا أردت الدعاء لإنسان
وهجا ابن الرومي أخذ الولاية فديس له السم في كعكة ، فلما أكلها وأحس
بالسم ، قام ليخرج ، فقال له الوالي : إلى أين ؟ فقال : إلى الموضع الذي بمشيتي إليه
فقال له : أقرى والدي مني السلام ، فقال له : سمّه غيره فليس طريق على النار .
وأثم العالم التي يظن أنها في شغل عن هذه المجالس بما يترادف في ميادين العمل
عندها من النزاع المستمر والجد المتواصل ، لا تخلو من نوادر وأضاحيك ، حتى
لقد صار هذا النوع من الهزل فناً تسامى فيه المتمهرون من ذبوع الصيت وتعال
الأمم إلى مراتب الأفاضل من رجال التاريخ

ولا تزال دور التمثيل ومسارح الخيالات في بلاد العالم تجد الحاجة شديدة
ماسة إلى هذه الأدوار الهزلية التي تنرق الجماهير عند مشاهدتها أو سماعها في
الضحك والاستلقاء والفحص .

وفي الغالب أن المأثور عند الفرنسيين ، أو الانجليز ، أو الألمان أو غيرهم من الحكايات في هذا الموضوع ، قد لا يصب من نفوس المشاركة موضعاً يذكر . ويشتهر أهل مصر بالتقليص وإرسال النوادر ، حتى غاب ذلك على كثير من أدبائهم وشعرائهم ، وقد نبغ من هؤلاء في عصرنا الحاضر المغفور لهم : الشيخ علي الليثي ، والشيخ حسن الآلاتي ، والنجار ، وحفني بك ناصف ، وكان خاتمة أهل الظرف والاحسان للملح حافظ ، والبابلي ، فقد بلغا الغايات في استيلائهما على النفوس بمحاسن الطرف وما أثر عنهما رحمهما الله من النوادر .

ومن ملح هذا العصر :

أن المغفور له الشيخ علي الليثي من ستمار عزيز مصر الخديو إسماعيل والخديو توفيق المقربين لديهما كانت له حجرة خاصة به . فر المهردار يوماً على هذه الحجرة ، فرأى فيها مكتباً فخماً ، وأناناً جميلاً والليثي جالس على المكتب ولا عمل له في الدولة !

فأمسك المهردار طباشيرة وكتب على باب الحجرة : (إنما نظمكم لوجه الله) ومضى ، فقام الليثي ليرى ما كتبه المهردار ، فرأى تلك الجملة ؛ فتوجه في الحال إلى مكتب المهردار وكتب على بابه :

عمت ساقية من ذهب تروي رياض الجلائنار
علقت فيها الطور عصي علقت فيها المهردار

وكان المرحوم حفني بك ناصف فيه دعاية وخفة روح تلازمه حتى في شعره ، فمن ذلك قوله في تكريمه لخليل بك مطران في قاعة الجامعة المصرية القديمة وكان قد أنعم عليه بوسام :

مطران ما حققت أمرك شيء أراه يزين صدرك
ما أنت في الآداب مطراناً ولكن أنت بطرك

ومن دعاباته الفكهة قصيدة في شكر وزير الحقانية عند ترقيته إلى وكالة محكمة قنا وفي وصف تلك المدينة :

قالوا شخصت إلى قنا يا مرحباً « بقنا » وإسنا
قالوا قنا حر فقلت وهل يرد الحر قنا
ها قد أصبت البرد والبرداء والقلب اطمأن
قد خفت النفقات إذ لا أشتري صوفاً وقطناً
وفرت من ثمن الوقود النصف أو نصفاً وثمناً
فاذا بدت لي حاجة في الفصل ألقى الماء سخناً
أو رمت طبخاً أو علاج الخبز ألقى الجو فرناً
عش في القرى رأساً ولا تسكن مع الأذئاب مدناً

وكان للمرحوم الأستاذ عثمان بك ليب حمار يثقل عليه في دروب القاهرة وفي
الذهاب إلى المدارس للقيام بعمله ، فسرقه اللصوص
وبلغ الخبر المرحوم محمود أفندي سلامة صاحب جريدة الواعظ فقال يرثى
الحمار المسروق :

قف بسوق الحمير وانظر ملياً هل ترى أدهماً أغر الحمير

خلسته يد اللصوص صباحاً موكفاً ماجماً معداً مهياً
نحلاً أصطبله وأصبح قاعاً صفصفاً خاوى العروش خلياً

كان يا حسرتاً عليه صبوراً قانع النفس راضياً مرضياً
كم ليال على الطوى قد طواها حامداً شاكراً ولم يشك شيئاً
لا لفقر وضيق عيش ولكن كان في الزهد راغباً وتقياً
لو أتاح الإله للبهم رسلاً كان في أمة الحمير ندياً
ليت شعري أين الأمان وهذا جحش عثمان قد عدمناه حياً
كان عوناً له إذا رام ظعننا وخليلاً لدى المقام صفياً

كان إن قلت (هش) أجابك طوعاً وإذا قلت (حا) أنتضى سمهرياً
لك فيه العزاء عثمان أما سالبوه فسوف يلقون غياً

ومن نوادر البابلي وهي بلدة طبعاً :

أنه سافر مرة إلى الاسكندرية ، ونزل في فندق واستأجر غرفة بسريرين
فزاره صديق له فقال له وقد دهش : أنت وحدك فلماذا استأجرت غرفة بسريرين ؟
فقال له البابلي : « حتى أشبع نوم يا أخى »

وكان حافظ والبابلي يسيران يوماً بجلوان ومعهما المرحوم أحمد جاد وكان
مشهوراً بجلالة النكتة البلدية ، وحافظ ينشد بيتاً لأبي تمام ، والبابلي ينشد بيتاً
لكثمرى ، وأحمد جاد يسير بينهما مطرقاً فقال له حافظ مالك تمشى بيتنا ساكتاً
كالخمار ؟ فقال له جاد : لا ، بل أنا أعزك الله كالتريش

وإمام المبدع من زجالي هذا المصراع وشعرائه وبجانه كان يقول في مجالسه : حافظ !
ومن حافظ ؟ أنا أخلق في اليوم عشرين حافظ وشوقي . ومن شوقي ؟ أنا أخلق في اليوم
عشرين شوقي ! وبلغ ذلك حافظاً ثم ذهب إمام إليه ليتسلف منه ريثاً . فقال له حافظ :
والله يا مولاي كما خلقتني !

أحمد هاشم عطية

الوضوح والغموض وطبيعة الأدب

بقلم عبد الباقى إبراهيم

المدرس بمدرسة فاروق الأول الثانوية

منذ عقدين من السنين أو أقل ، كان الحديث في موضوع كهذا يبدو غريباً
فقد كان الأدب يخلقه الشعراء والكتاب في ذلك العهد وانحاً ، وما غمض منه كان
مستوحشاً غريباً كأنه في غير بيئته

كان القراء يقولون على أدب المنفلوطى ما ألف أو ترجم لوضوحه و « بساطته »
إقبالاً شديداً ، حتى ندر في تلايمذ ذلك العهد من لم يقرأ كل ما أخرج المنفلوطى
على حين كان حديث القمر مثلاً للرافى لا يجد قبولاً

ولم يكن للشعر إلا مدرسة واحدة هى مدرسة شوقي وحافظ وحفنى وأضرابهم
تلك المدرسة التى كانت تؤمن بالوضوح بفطرتها الملهمه .

أما الآن فقد تبدلت الحال كثيراً ، فقد أصبح الغموض فى الأدب مذهباً
ورأياً له أنصار يدافعون عنه ويحتجون له ، فإني أذكر أنى سمعت الدكتور
الأديب « زكي أباشادى » ينتصر له فى أثناء حديث بينى وبينه ، وأحسبه كتب
فى ذلك أيضاً ، وأذكر أن أستاذاً كبيراً من أساتذة الأدب فى مصر أشار إلى
هذا المذهب فى أثناء درسه إشارة مقرونة بالمطف عليه ، بل قد ذهب إلى أبعد من
هذا إذ فضل أبا تمام على البحترى من ناحية ذات صلة قوية بغموض المسلك
وخفاء المقصد .

ثم ننظر فى الشعر المصرى فإذا كثير منه لا تكشف عبارته عن قصد ولا
تبين عن غرض ، ولقد تقرأ البيت مرة بعد أخرى فإذا هو فى النهاية أشد غموضاً
وأكثر خفاء

وقد تكون ممن أدركو حظاً وافراً من اللغة ومن يستطيعون أن يفهموا
فلسفة (كانت) على خفائها وشدة غموضها ، وتمجز مع ذلك عن أن تدرك معنى

يلت من هذا الشعر تدل عليه طبيعة التركيب

من أجل هذا عقدنا هذا البحث لنكشف فيه عن طبيعة الأدب كما نفهمها
ثم ننظر أى الأسلوبين أدنى إلى هذه الطبيعة صالحة ، وأقرب منها رحماً ؛ فإنه يلوح لنا
أنه لا شيء يضر الفن أكثر من أن تصرفه عن طبيعته حتى يتناكرا ، وتبعده
عن جوهره حتى يتنافرا

وقبل أن ندخل فى صميم بحثنا نرى أن نحدد ما نعنيه بالوضوح والغموض
محددات دقيقة

إننى لا أقصد بالوضوح أن يكون المعنى ساذجاً فطرياً قد تناوله الأديب من
كتب فلم يكلف ذهنه فى الوصول إليه مشقة

ولا أن يكون قد صار مألوفاً لكثرة ما تناهتته الأذهان وتواردت عليه
الافهام ، فما هو إلا أن تسمع العبارة حتى يهجم على نفسك ويسبق إلى فهمك
وإنما ظنى به أن يكون التركيب نفسه بكلماته ونظامه يدل عليه ويكشف عنه فلا
يضطرننا إلى ضروب من التأويل لا نطمئن إليها ولا نجد البينة عليها من الألفاظ نفسها
ونحن ندخل فى مرتبة الوضوح ، المعاني التى توحى بها الكلمات أو العبارات
إيحاء فلا نقف عند الحد الضيق الذى تحدده التواميس للكلمة ، فإن الشاعر أو
الكاتب قد يستعمل كلمة يدل بها على ما هو أوسع كثيراً مما لها فى القاموس ، ومن
أجل هذا كان فهم الشاعر فيها تاماً ، وقدره حق قدره ، بحاجة إلى الذوق ، وإلى
الصلة الروحية التى تجمع بينه وبين الناقد

ولا نقصد بالغموض أن يكون المعنى عميقاً قد سافر إليه الدهن أو تعب فيه
الخيال أو ارتفع به مبدعه عن الأفق المادى للأدباء ، فعمق المعنى فى رأينا هو
بُعده وارتفاعه عن أفق الدهن المادى ؛ أما الغموض فهو قصور التركيب نفسه
— مع أن النظام يجرى على القانون العربى — عن أن يكشف عما فى النفس دون
لبس . فهما شيئان مختلفان

وكما نرى العمق والغموض مختلفين نرى أن العمق لا يدعو لزائماً إلى الغموض

ولا يضطر إليه حتى لا يكون للأدب مندوحة عنه ، وآية ذلك تظافر بها في كثير من النثر وفي كثير من الشعر ؛ فكثير من القراء يعرفون أنه قد ترجم إلى النثر العربي آثار لنيثشة الفيلسوف الأديب الألماني في « مجلة العصور » و« ليجيتي » آلام فرتر : للزيات » وفاوست : « الدكتور عوض » ولشكسبير : « المقتطف » ولأناتول فرانس : « أناطول فرانس في مبادله : للأمير شكيب أرسلان »

وما من شك في سمو أفكار هؤلاء وعمقها ، إذ كان لكل منهم حظ غير يسير من الفلسفة ، وكان لبعضهم نصيب كبير من البحث العلمي الدقيق ، وقد اتسع لمن ترجموا لهم أن يصوغوا أفكارهم في أساليب بلغت النفاية من الإبانة والوضوح وفي الشعر نستطيع أن نجد أمثلة كثيرة تجمع بين الوضوح وسمو المعنى وارتفاعه وإن شئت فقل عمقه ، وقد اخترنا هنا من هذه الأمثلة لشاعرين يختلفان عصرًا وبيئة ولكنهما يتفقان في نزعة واحدة ، هي ازدحام الأساليب بالمعاني البعيدة العميقة وهما المتنبي والمقاد

المتنبي يمدح :

إلى سيد لو بشر الله أمة بغير نبي بشرتنا به الرسل
رأيت ابن أم الموت لو أن بأسه فشا بين أهل الأرض لا تقطع النسل

فكم عين قرب حدثت لنزاله فلم تنفض إلا والسنان لها كل
وحالت عطايا كفه دون وعده فليس له إنجاز وعد ولا مطل
وله أيضاً :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرنا شموسا
أو كان صاذف رأس عازر سقيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فكان العالمون بحوسا
وله أيضاً :

كان سخاءك الإسلام : تخشى إذا ما حلت عاقبة ارتداد

كان الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيفوك من رقاد
وقد صفت الأسنة من هموم فما يخطر إلا في الفؤاد
للأستاذ عباس العقاد :

قال من قطعة له بعنوان « أمام قفص الجييون »

اللب الآن وانتظر بعد حقا ترق في « سلم الرق » وتمل
كيف لم تصعد السلام وثبا أيها الصاعد الذي لا يمل

انتظر يا صديق شيئا فشيئا تطبخ القوت كله بيديكا
غير أني إخلال ما كان نيكاً منه ، أجدى في الحالتين عليك

انتظر يا صديق مليون عام أو ملايين لست والله أدرى
إن تدانيت بعدها من مقاي فقصارى الطاف أن لست تدري

وله بعنوان « صيام الفكر »

دع اليوم زاد الفكر في صفحاته أنا اليوم عن زادي من الفكر صائم
وقد يهجر العقل الكتاب تدينا كما تهجر القوت الجسوم الطواعم
ففي هذه الأمثلة التي يمكنك أن تجد كثيراً من طرازها ، استطاع شاعر أن
يخضعا الأسلوب لها وأن يروضه رياضة ماهرة للكشف عن معان لا يصل إليها
الذهن إلا بعد سمو وبحليق

وزيدك اقتناعاً بصحة ما ذهبنا إليه أن ترى المعنى الذي ذلل ووطى لكثرة
تداوله يتناوله الشاعر تناوياً غير موفق ، فإذا هو سبيل إلى الغموض وطريق إلى
الخفاء . وخذ مثلاً على ذلك قول أبي تمام في عبد الله بن طاهر :

أهن عوادي يوسف وصواحيبه فغزماً ، فقد ما أدرك النجج طالبه
فقد أراد أبو تمام أن يقول « إن النساء هن اللاتي صرفن يوسف عن رشده
وإذن فلا تشق بهن في إغرائك بالممدول عن رحيلك إلى عبد الله وامض لطبتك
في إضرار وعزم »

إن المعنى الذى جاء به أبو تمام وهو اتهام النساء فى النصيح ليس مبتكراً ولا بعمداً ، فقد جاء فى الحديث « إنكن صواحبات يوسف » والنتيجة التى رتبها عليه كانت فى حاجة إلى حلقة مفقودة من الألفاظ تهدي إليها ، وهو لم يخلق جواً يجعل الدهن يعضى إليها دون التواء كأن يأتى بحوار بينه وبين المرأة كما فعل أبو نواس فى قوله :

تقول التى من بيتها خف مركبى غريز علينا أن نراك تسير
إلى آخر الأبيات المعروفة ، من أجل هذا كان أبو تمام غامضاً فى هذا المعنى القريب التناول ، ومن أجل هذا عابه الآمدى وقال له أبو العميشل « لم لا تقول ما يفهم ! » ولعلنا بمد ما تقدم نكون قد وفقنا إلى تحديد الرضوح والعموض تحديداً يميننا فى حلقات البحث التالية إن شاء الله

عبد الباقى إبراهيم

مع الشعراء

نقد الشعر

يقلم فايز العمروسي

المدرس بمدرسة النيرة الابتدائية للبنين

يجرنا الكلام في نقد الشعر ، إلى لمحطة خاطفة في طبيعة الشعراء .
 فمنهم ذو الموهبة الخاصة ، وهو النكوب الذي لا يبرأ أبداً ؛ ومنهم المقلد ،
 الذي يعيش مع الأحياء في مستوى واحد ، وهو السعيد الذي لا يعرف الألم إلى
 نفسه سبيلاً ، والأول هو من يبرز لنا : « أدب الشخصية » أو أدب « الكيان
 الذاتي » ذاك لأن طبيعته موهوبة من الحس والحيوية والقوة الروحية ، مابه تخرج
 بكل مظهر من مظاهر الحياة ، فتخرجه صورة صادقة من نفسه ، وأنموذجاً دقيقاً
 لشخصيته ، وفرق بين هذا وبين الناظم الذي يحس مظاهر الحياة إحساساً
 فطرياً فيصورها كيفما وقع عليها نظره السريع ، دون أن يكون بينها وبين نفسه
 اتصال ، وهذا الشاعر — مع التساهل في التسمية — هو الموجود في معظم الحياة
 الأدبية الحاضرة ، وهو هو الذي يسعد بالنعمة من الجزاء والتقدير !

إن صلة الشاعر بنفسه ، هي ميزان العظمة والنبوغ ، فكلما اشتدت الصلة
 بينهما ، طفت النفس عليه وحجبت بأجنحتها فلا يستطيع التخلص منها ، ولا
 يجد سبيلاً إلى الفرار من تحت هذا الضغط العنيف ، فهو أبداً متلاش فيها ، ذائب
 في حوضها ، ومن هنا تظهر شخصيته في إنتاجه رغم أنه ، ويمتد ظلها في كل
 وادٍ يسلكه ، وكل جو يحوم فيه ؛ فهو في الرثاء والتهنئة والمدح والوصف والنزل
 وفي الفكر والتأمل ، وفي كل خاطرة توقظها في نفسه صور الحياة ونوازعها — هو
 في كل هذا ذو طابع لا يتغير ، وفي موسيقية لها إيقاعها الخاص به ، وبين

ظلال من الألوان التي شبت تحت عرشها نفسه الفطرية الأولى !
ولعل هذه الخصائص هي ما ميزت شعر « لامتريين » شاعر الحب والجمال
بطابعه الخالد ، وأضفت على ليالي « ألفريد دموسيه » أنثاماً تأملية حزينة احتوت
نفسه وقلبه ، وهي هي تلك الخصائص التي بها خلد « شيلي » الشاعر
الإنجليزي ، في مقطوعات حياته الغرامية الصاخبة ، وهي هي نفسها ما أبقت على
شعر « كينس ويرون » الشعراء الإنجليزين رغم قلة إنتاجهما وقصر عمرهما !
فقوة الشخصية — مهما كان نوعها — هي التي تخلد فن صاحبها ، وبقدر
ظهورها أو تلاشيا يكون تقديره والاعتزاز به ... والشاعر من هذا النوع ممتاز
بأمرين : بصدقه فيما يحس ، وبقدرته على تصوير هذا الحس بريشة كنهه
الذاتي ، لا بريشة الطلاء والزخارف والألوان ، وهو بتلك القوة منبع صادق
بالفيض والإلهام قبل أن يكون للبواعث الخارجية أثر في الإثارة والاذكاء !
أما ذلكم الشاعر الذي ينظم فيجيد ، وينمق فيدع ، ويوقع فيُنغمم الإيقاع
من غير روح أو حرارة أو صدق ، يمدح كل عظيم بصفات واحدة لا تتغير ،
ويرثي كل راحل بكاء واحد لا يختلف ، ويصف الليل بأنه ظلمة وهدوء ، أو قمر
ونجوم لا غير ، وينظر إلى الصحراء فيحسها زمالاً واتساعاً فحسب ، ويرنو إلى
البحر فيحسبه أمواجاً وشواطئ ، ويعنو إلى الروض فيخاله خضرة وأشجاراً
بجردة من الأثر ، وعارية من التأمل والفكر الناضج ... أما ذلكم الشاعر فهو
والناس سواء ، لم يخرج عن مألفهم ، ولم يتجاوز دائرة أفكارهم !! إذا نزل
سبته ملامح الوجه ، ورشاقة الأعضاء ، ولطف التناسق ، وإذا تذكر سرد الحقائق
بجردة كأحدونه الأطفال وقصص المؤرخين ، وإذا حاول أن يفكر علق فكره
بالسطحي من الأمور ، وعجز عن أن يمد هذا الفكر بالتأمل العميق ... هذا
الشاعر لم يحمل إلينا رسالة الشعر الخالدة ، التي تسجل لصاحبها في تاريخ الفكر
والإنسانية لقب الإنسان الممتاز

وحرام أن تبيح القوانين الشعرية لقب « الشاعر » لمن كانت هذه شاكلته ،
فالفكر والصدق والشعور والقلب ، مواهب غالية لا بد من توفرها فى الإنتاج
الأدبى لينال فى الحياة تقديرها المعنوى من الاجلال ، وحيث يخلو الإنتاج منها فما
أجدره بالفناء ! ولا تختلف هذه المواهب عما عناه الأستاذ « المقاد »
بـ « الشخصية » التى نفاها عن المرحوم « شوقى » فى جميع إنتاجه الشعرى
وعندى أن « شوقى » ليس هو وحده الذى فقد الشخصية ، فإن أغلب شعراء
عصر الانتقال إلى عهد النهضة الحديثة من هذا النوع ، غير أن « شوقى » وإن
فقد شخصيته لم يفقد فى شعره عبقرية « الفنان » المبدع ، فوق ما امتازت به
ميوله من أنه الشاعر الشعبى الخالد !

على أننى أيسج « الناظم » الذى يتمشى مع الصنعة والاجادة ، ولا يستطيع
مزجها بنفسه وطبعها بطابعه الخاص — أيسج له أن يحدق صنعته ويشبعها إجابة
وإتقاناً ، ولكن لا أستطيع أن أقول إنه « شاعر » بالمعنى الذى تحدده مهمة
الشعر السامية ، أيسج له هذا وأعذره كل العذر ، إذ لو كانت له نفسه قوية
لظهرت — وإن حجبها — ولو كان له روح لحقق فى كل خاطرة من خواطره
ومن من الشعراء الأقدمين — إلا قليلاً — خالف النمط الذى سار عليه
شوقى ؟ كلهم من هذا النوع ، لأنهم عاشوا فى أجواء اجتماعية مختلفة ، تطلبت
مرافقها أن تتلائم شخصياتهم ، وتنفى أرواحهم ، فلم يحفلوا بالشعر إلا كصناعة
كلامية ، أجودها ما جرت الكسب وقرب من الملوك والأمراء ، وما أعتقد
أن حياة « شوقى » كانت غير حياتهم فى شيء !

وبعد : فسيقول قائل : أين نقد الشعر من هذا الكلام ؟ وأجب أن يعرف
السائل أن نقد الشعر معناه فهمه ... وما احتوته هذه الكلمة إنما هو فهم للشعر
وتفهم لمختلف الطبائع التى تنتجها ، ومحاولة لوزن أقدار تلك الطبائع على ضوء
الشعر الذى يريده ، أو الذى يريده الفن الشعرى الكامل ! وإليك صورة من نقد
الشعر أو « فهمه »

يسمع هذا بيتاً من الشعر فيصيح على الفور « الله ! » ثم تسأله ماذا فهم من البيت ؟ فيجيبك لا أدري ؟ ... ويسمع ذاك بيتاً من الشعر فيطلب منك الإعادة فتعيد : ثم يطلبها ثانياً فتعيد : ثم يصمت في إطراقة من البلادة ليجيبك بمسداها بتلك الكلمات « اللفظ ده إيه ؟ ودى مصدر أو اسم مصدر و ... و ... الخ » ومعنى هذا ، أن السامع الأول ذو ملكة فنية تيقظت إلى الناحية الموسيقية في البيت ، دون أن تترسم قواعد اللغة فيه ، فاهتز وطرب كمن تشجيه الألحان ، ويسبح في خيال الأنعام وهو لا يدري لأصولها معنى ، وأن الثانى ليست فيه تلك الملكة ، فهو مقفر من الحس الفنى ، وغير صالح لغذاء المعنى أو الروح ، وكلا الاحساسين ليس صالحاً وحده لتساع الشعر أو نقده ، لأن الأول موسيقى بحت ، والثانى نحوى بحت ! وكلاهما مخطئ ، فى التقدير ، عابث فى الحكم إذا حكم ، غير أن الأول قريب من الصلاحية ، لأنه موهوب بأكبر عناصر الشعور وهو الموسيقى ، أما الثانى . فما أجدره بفهم « المرائض والبلاغات ! »

القصيدة الشعرية كطاقة من الأزهار المنسقة ، فاذا نثرت أزهارها واحدة واحدة هتكت حرمتها ، وشوهت روعتها ، وأهنت جلالها ، فلا تبعث فى النفس ما كانت تبعثه فيها من الفيض والنشوة والشعور بالجمال

والبيت الواحد من القصيدة كالزهرة المذراء ، تنظر إليها العين لتستشعر جمالها ، وتستشف عذوبتها ، فى صمتها المعبى ، وحيائها العفيف ، ثم ينتقل الحس بها إلى الفكر ، لياخذ طريقه إلى التأمل والامعان ، فاذا ما عبثت بعذريتها ، وشرحت تلك الزهرة بأصابعك الأثيمة إلى جزئياتها ، ذلت كبرياؤها ، وأصبحت نظرية علمية ، لا معنى سحرى كما جيل !

إذن فالنظر الفنى إلى القصيدة ، يجب أن يكون نظراً كلياً ، لا جزئياً لأنها كتلة واحدة تعبر عن ممان نفسية ، مصدرها القلب ، وفيضها الشعور ، والقلب والشعور متحدان دائماً فى التعبير عن الماطفة ، نحو مؤثر واحد من المؤثرات ، فمن الخطأ أن نفرق بين الشعور الواحد فى قصيدة ما ... بأن نحللها بيتاً بيتاً ،

أو أن نهد كيائها بالنظر إلى ألفاظها التي أعدها رخيصة ، إذا قيست بالمعنى الرائع الذي تحمله القصيدة إلى الناس

ولست أقصد بهذا الكلام أن تنفض النظر نهائياً عن ذقة التراكيب وسلامة التعبير وصحة الألفاظ . كلا : ولكن أريد من الناقد أن يكون ذا موهبتين : موهبة الفن الشعري ، حتى يُحس جلاله وعذوبته ؛ وموهبة القوة اللغوية ، التي تستشعر النقص في المرحلة الأخيرة من النقد ، دون أن يفض هذا النقص — المقبول — من تقديره لفنية القصيدة ، أو يؤثر في إحساسه نحوها

ومثل ناقد الشعر ، كمثل اثنين يستمعان إلى أنغام موسيقية تمثل قطعة في معنى من المعاني ، أحدهما لا يستشعر من الموسيقى إلا رنين صوتها ، والثاني موهوب فنى يستشعر كلها أو نقصها . فلا شك أن الأول إذا تعرض للنقد كان جريئة كبرى على الفن ، وتهجماً شنيعاً على معنى لا يحسه ولا يتذوقه ، وليس في استمداده الفكري ما يهيئ له أسباب التأمل فيه . ولا شك أن الثاني أهل للملاحظة وجدير بالتعليق على ما يسمع من الأنغام ، من حيث قوتها أو ضعفها ، أو رقتها أو تجافها ، فإذا لم يكن تعليقه من ناحية أصول الفن ، فلا أقل من أن يكون من ناحية الحس والوجدان ... وناقد الشعر واحد من هذين الاثنين وكفى !!

للموسيقى الدائع الصيت « بهوفن » قطعة موسيقية اسمها « أمواج الدانوب » قطعة صامتة تحس من خلالها رعشة المياه ، وخلجات الأمواج الصغيرة ، وقفزاتها في المدّ وانحسارها في الجزر ... أيحس معناها وجلالها سامع مقفر من الحسّ الفنى والشعور الانساني الممتاز ؟ طبعاً لا . وما تلك القطعة إلا قصيدة فلهي لها من يسمعها ، ليحسها ... لينقدّها .. !

قابلي مرة — في الطريق العامة — واحد من كبار المثقفين خياني قائلاً :

قرأت قصيدتك « وداع عهد » التي تقول فيها :

ذكرت العهد فانسابت برغمي دمة حرّى

وأحبسها فتقلبى فأسكبها دماً مُرّاً

ولى اعتراض على ما قلت . قلت : تفضل بأبدائه . قال : كيف يكون الدم

مُرّاً ؟ ففهمت فوراً عقلية مولانا ... وأردت التخلص من اعتراضه الوجهية ...

بأسهل رد بديهي محسوس ! قلت : لقد ذقته بلساني . فتمجّب !! وقال : أذقت

الدم بلسانك ؟ قلت : وأسكنته جوفى ! فزاد تمجّبه ! فأكدت له ذلك فافتنع !

ثم قال : إذن هي حقيقة لا مجاز ؟ قلت : وأُمّ الحقيقة !

وهذا مثل من نقاد الشعر ، تطوف بذهنه المعاني الحسية دائماً فيتصور في :

« وأسكبها دماً مُرّاً » أنني سكبتها دماً أحمر قانياً وطعمه مرّاً كالخنظل !

ومثل آخر من نقده أو فهمه :

قرأ أديب هذين البيتين لإسماعيل صبرى :

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضاً لوعة وعتاباً

كان صديقاً في خلال صديقه تسرب أثناء العتاب وغاباً

ففهم الأديب من البيت الثانى سوء نية الشاعر . وذلك من لفظ « خلال » .

ثم فهم من « تسرب وغاباً » أن أحدهما ابتلع الثانى في جوفه ، وهذا بعض ما قال :

« ثم كيف كان تسرب الصديق في خلال صديقه ؟ هل حمّله الآخر في بطنه

حتى تمر عليه تسعة أشهر فيلده ؟ وكيف تسرب بجملته من انحص قدميه إلى

ناصيته ؟ الحق أنه تسرب فاحش مبتذل ، ولو أنه تسرب قلبه إلى قلبه لكان

ظريفاً مستملحاً ، يريد الناقد بهذا ، الإشارة إلى بيت المرحوم « الرافى » :

وشدّ الهوى قلباً لقلب كأنما يريد الهوى إنقاذ قلب إلى قلب

هذا أديب مؤلف فهم البيت كما سقته الآن ، فكيف يفهم الشعر غير الأدباء .

إذا كان المشتغلون بالأدب في معالجة فهمه وتدوقه يفهمون معنى « تسرب وغاباً »

على أنهما يفيدان عملية الابتلاع بعد الأكل والمضغ ، أو يفيدان أن الحبيب مع

حببه حين اللقاء كالحوت مع فريسته حين الابتلاع ؟
 وكيف يفهم الأديب قول شاعر الحب والجمال « لامارتين » :
 وبنفسى فى ساعة الموت صمت يحتوينى كصمتة القبلات
 بين قلبين فى عناق طويل دائم الصمت بالغ الحفقات
 سيقول الأديب : كيف ينام الحبيبان فى القبلات ! وكيف يكون فى القلبين
 رعد وزلازل ؟

وأخيراً : قد يحسن التطويل فى هذا الموضوع ، ولعلنى راجع إليه فى العدد
 الآتى ، متناولاً فى ذلك أيضاً دراسة الأدب فى مصر ، وإذا عشت ، فأنى فاعل
 ذلك إن شاء الله ما

فابن العمرى

بين الحقيقة والخيال

- ٣ -

صفحة من محاسن القرآن

للهيئة عبد اللطيف المغربي

المفتش بوزارة المعارف

أظننا شهر الصيام فبسط على النفوس المؤمنة سلطانه ، وضرب حولها نطاقاً من خشية الله وعظمته ، وغمرها بضروب من صادق اليقين ، وفتح لها أبواباً من المعرفة المشرقة ، وطالعها بالإنابة إلى الساحة المطهرة : ساحة العمل الصالح والزاني لله ابتغاء ما عنده من ثواب مدخر ، ونعيم مقيم . وكان لابد للناس بعد يوم طال بياضه وكثرت جهوده ، من ليل معاقب يطلقون فيه النفوس على صفائها ، ويأخذون فيه بالمتع المباحة ، ليجم النشاط على العبادة ، وتدوم القدرة على الطاعة وفي ليلة من تلك الليالي الباسمة ، دفعني الشوق إلى دار من تلك الدور الشرقية القديمة ، التي يتجلى فيها جمال الشرق وكرمه : من أفنية فسيحة ، وغرف رفيعة ، تتجاوب في جوانبها روائع الفن ، وتتسع في محيطها الأرائك لعلية القوم وأشرافهم وعلمائهم وأدبائهم وتجاريمهم ؛ فيسمرون صدرأ من الليل ، يقطفون من ثمر الحديث ألواناً ، وهم على أحسن ما يكون : طيب نفس ، ووفرة أنس ، ورقة شمائل ، وعذوبة منطق ، وبراعة مناظرة ، وحسن مساجلة ؛ وتلك صفحة من صفحات الاجتماع الشرقي تكاد المدنية تحوها ، ويد التجديد تطمس معالمها وتعمث بها كما عبت بكثير من عاداتنا فأحالتها إلى صور شوهاء لا شرقية ولا غربية . فعلى تلك العصور سلام الله ، وعلى تلك المجالس العلية دمة الأسمى تنحدر إليها في جوف الماضي

ولما أخذت مكاني من القوم في بهرة المجلس ، سمعت صوت قاري عذب كأنه

صوت البلبل إذا بسمت له الطبيعة ، ومشى إليه الربيع في أجل حاله الموساة ،
نجا بأروع نغم ، وأرق إيقاع . وقد شاء صاحب الدار أن يفرد لقارئه مكاناً
في أبهاء المنزل قريباً من المجلس ، فكان موفقاً في اختياره ، حتى يدع لمن أراد
الاستماع إلى قوله مناه ، ومن أراد لهو الحديث هواه .

وكان بين شيوخ المجلس شيخ وقور رائع الطلعة ، عظيم اللحية ، حسن
السمت ، طويل الصمت ، حديد البصر ، يحيل في الحاضرين طرفاً سريع القلب ؛
وكان يأخذني بصره حيناً بمدح في كثير من الحذر والترقب ، فحدثني نفسي
أنى رأيت هذا الوجه من قبل . وانتفض المجلس انتفاضة انصرف على أثرها نصف
أهله ، خلا بجوارى مكان أسرع إليه ذلك الشيخ المهيب وأتى تحتية إلى ،
فعرفت في نبرات صوته وحسن جرسه ووفرة أدبه وجمل خلقه ، دلائل فضل ونبل
تمت إلى النفس بسالف ألفه ، وسابق معرفة ، ولكنى لم أستطع أن آخذ برأي
قاطع في أمر صاحبي حتى ترى إلينا صوت القارى وهو يقول « الله الذى خلق
السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر
لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر
دائمين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله
لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » فأخذت صاحبي رعدة شديدة لجلال هذا
القول ، وسميته يردد : ما أظلم الإنسان لنفسه ولغيره . وما أعدلنا معشر الطيور ؛
فقلت له وما أنت والطير ؟ فبدت على بحياه ابتسامة رقيقة ثم على معنى خفي في
نفسه ، وتطوى وراءها سرّاً يعتلج في صدره ؛ ثم قال أليس من الظلمة أن نلتقى
غير مرة ونأخذ بأطراف الأحاديث ، حتى إذا ضربت الأيام بينى وبينك بقليل
ليلها ونهارها أظلك النسيان ، وأنا لا أزال على عهد المودة مقياً ؟ فقال هذا القول
من نفسى كل منال ، وحدهته بنظرة فاحصة فإذا هو صديقى « المصفور » فأقبلت
عليه أصاخه وأعتذر إليه وأمنحه ودى وعطاني حتى رضى عني ، وما كان ذلك
منى إلا اشتغال بال ، والتواء حال . ثم خضنا فى الأحاديث :

المصفور — لقد ملك على إجماعى وقيد سمعى هذا القرآن الكريم الذى رفع

للبلاغة أعلى منار ، وصور البيان في أجمل صورة ، وشأى العرب اللسان المقاول بأسلوبه الفرد الممتاز الذى لا يشبهه أسلوب إنسانى ، وتحداهم أن يمارضوه فوققوا أنامه عاجزين ، وألقوا إليه قياد التسليم ، وظل معجزة الدنيا تنهاوى الأيام في ظلاله ، وتماقب على أنواره ، وهو لا يزداد إلا رفعة وروعة ، وجدة وبهجة ، فتبارك الله رب العالمين

أنا - لله درك يا أديب الطير ، طالبا سرنى ذوقك وأعجبني حسن تقديرك للأمور ، ووزنها بمقيار العدل والحكمة ، وتلك طبيعة فيكم يا معشر الطير ، لقد زهكم الله عن الموامل النفسية : من بغض وحسد وتنافس ، فأصبحتم تنظرون إلى الأمور بعين البصيرة الصافية لا يحول بينكم وبينها شائبة من شوائب الهوى ، فجاءت أحكامكم صادقة ، وممايبكم صحيحة محكمة

المصفور - هل افترى أحد من الناس الذين سمعوا القرآن وغلب عليه هواه فتلقاه بنير ما تلقينه به من التقدير وعظيم الإعجاب ؟

أنا - لقد كان من دلائل عظمة القرآن أن يكثر حساده من العرب وغيرهم ، فقال قوم من العرب إنه سحر ، ومنهم من قال إن محمداً الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم قد افتراه ؛ وأتى بمد هؤلاء من يزعمون أن أسلوبه غير معجز وقد كان في مقدرة العرب أن يمارضوه ، ولكن الله صرفهم عن ذلك فلم يفعلوا . أما سمعت بمد هذا سخفاً ؟ وهكذا يتوالى المداء للقرآن على مر المصور لحاجة في النفس

المصفور - حقاً إن ما تقوله لمعن في الغرابة ، متناه إلى أبعد حدود الدهشة ؛ إنى لأفهم أن العرب الذين وصفوا القرآن بأنه سحر موتورون ، وقد قالوها كلمة يرفهون بها عن أنفسهم ويلتمسون لها المذرة من القصور عن محاكاة القرآن . أما أولئك الذين قالوا إنه مفتى ، والذين قالوا إن أسلوبه غير معجز ، فما عذرهم في ذلك ؟ إنى لا أجد أبلغ في تبريع هؤلاء المأفونين من أن أدعوم إلى شيء واحد إن كانوا من أرباب البيان وأهل البصر بالبلاغة وفنون القول : أبرون فيما بينهم وبين أنفسهم أن أسلوب القرآن كأسلوب رسول الله صلى الله عليه

وسلم في أحاديثه ورسائله ؟ إن من أراد أن يتعرف وجوه الشبه بين كلامين ، عرضهما على الناحية الفنية من وجوه البلاغة ورائع الخيال وحسن التصوير وقوة الصوغ وغزارة المعاني ، وبغير هذه الناحية لا تصح لقائل دعوى ، ولا يستقيم له منطق ، ويقع في المذر البغيض . إني أشهد الله أنهم يشعرون إن كانوا من رجال البيان وأهل الفن بعظم الفرق بين كلام الله جل شأنه ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما يشعرون بعظيم الفرق بين كلام الرسول وكلام غيره من الفصحاء ، وهم لا ينكرون في أنفسهم أن القرآن تفيض عليه إشرقة نور إلهية ، وأن الحديث تغمره مسحة بشرية نبوية ، ولكنهم مصابون بآفة الهوى . وأزيد الذين قالوا بالإعجاز بالصرفة بياناً وتقريباً : هل رأوا فيما قرءوا من بيان عربي أسلوباً جديراً بأن يقرن إلى أسلوب القرآن في عظمته وروعته ومجويده وابتكاره ؟ إنهم بلا ريب لن يجدوا شيئاً لهذا الأسلوب ، ولو وجدوه لتقدموا به إلى الناس وعقدوا به الموازنة بين الكلامين ، فأقاموا حججهم ، وأصابوا بفتنهم . وما كان لهم أن يظفروا بهذا ، ولا سبيل إلى تحقيق مرادهم بغير هذا إن كانوا جادين فيما يقولون . ولكنهم صرعوا وحادوا عن طريق الحق ، لعجزهم عن إيراد الكلام البليغ الذي يشبه القرآن ، فأرسلوها قضية تنطق بضعفها وصغارها ، وتشهد لهم على مر الزمان بما انطوت عليه نفوسهم المريضة من البغض المردى والحسد المهلك . ألا ساء ما يحكمون

أنا — إذن ماذا ترى في قول بعض الباحثين في الأدب : من أن العرب في الجاهلية كان لهم نثر فني ؛ وأن شواهد ذلك النثر ليست صحيحة لأنها في جملتها من صنع الرواة ، وأن القرآن شاهد من شواهد النثر الجاهلي يصح الاعتماد عليه ، وأن العرب ما فهموا القرآن إلا لأنه يشابه ما كان عندهم من النثر ، وهم لا يخطبون بغير ما يفهمون

المصفور — ليس لهذا المنطق دلالة ولا استقامة ، وإنما هو كلام ذكر فيه شيء وأغفل شيء آخر ، وقضيته سيق بعض مقدماتها وأغفل البعض الآخر ، فجاء الاستنباط غريباً صارخاً ناطقاً بتخاذله وضمفه . ألا ترى أن القائل حين

قدر القرآن صورة للنثر الفني الجاهلي ، كان ينبغي له برأبالحق والفن ، ونزولا على دواعي المنطق المستقيم أن يعرض صوراً من هذا النثر الفني الجاهلي ثم يوازن بينها وبين القرآن في أساليبها وألفاظها وحسن صوغها وسأى معانيها ورائع خيالها ، فإذا استقامت له الموازنة صحت قضيته ، ورفعها البحث العلمي إلى مصاف الآراء الجديرة بالتقدير .

ولكنه حين علم أن هذه الموازنة لا يمكن أن تتم لجأ إلى أن النثر الجاهلي الذي يرويه الناس مصنوع في جملته ، وبذلك يكون النثر الفني الجاهلي الصحيح مفقوداً فلا يطالب بالموازنة بينه وبين القرآن ، وله بعد ذلك أن يرسل قضيته كما يريد ؛ وهذا من أغرب ما يكون ؛ فكيف يصح في العقل صحة حكم بلا دليل ؟ وإن البحث العلمي الحديث ليوحي بالوقوف بالقضايا العلمية التي لم تنهض الأدلة على إثباتها ، دون أظهارها للناس ولو كان صاحبها معتقداً بلا ريب صحتها ، حتى تقوم الأدلة على صدقها . وليس يصح في شرعة العقل والمنطق أن يكون النثر الجاهلي قد فقد دفعة ، بل لا بد أن تغت من قطعة أو أكثر من مطاردة الأيام ، وإذن يكون في مجموع النثر الجاهلي المصنوع بمض نثر جاهلي صحيح ، فهل رأى أحد من الذين قرءوا هذا النثر (الصحيح والمزيف) في بطون الكتب ما يشبه القرآن في بلاغته وقوة صوغه وروعة أساليبه ؟ إن أحداً من الناس لن يجد هذا النثر ، وقد عجز عن العثور عليه طالبوه منذ قرون خلت ، وإذن فلا دليل على هذه القضية ، وستظل كذلك ضعيفة وأشد ما يلقاني بالدهشة قول هذا الباحث الأديب « فلا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفني لعمد الجاهلية ، لأنه نزل لهداية أولئك الجاهلين ، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون »

ومغزى هذا أن العرب ما فهموا القرآن إلا لأنه صورة صحيحة لما عندهم من النثر وإلا ما فهموه ، وعلى هذا فكل من فهم كلاماً وجب أن يكون ذلك الكلام صورة مشابهة لكلامه وإلا ما فهمه ، وهذا قول ضعيف مردود لا يقبله العقل والمشاهدة والتجربة ، فأنما أفهم شعر شوقي وحافظ ، فهل يجب أن يكون شعري كشعرهما ؟ ويطربني نثر المتفولطى الكاتب الرقيق ، وأنتقل به في رياض أنيقة ،

ولا أستطيع أن أحاكمه أو أورد أقرب موارده ، وأسمع القطعة الموسيقية المذبذبة
فأسبح في عالم الخيال ، وتبلغ بي أسى منازل السرور ، ولا أقدر على صوغ لحن
من ألحانها ، وأرى الصورة الزيتية وضاء مشرقة تنطق بأرقى محاسن الفن
ومباهجه ، فتتهز لها جوانب النفس طرباً ، ولا أوفق لدخول خط من خطوطها ، فهل
ترى كيف برزت هذه القضية تهالك اعياء ، وتنبو عن مذاهب العقل والنطق
والبحث الحديث !

ولقد وفق العرب أيها الصديق إلى فهم القرآن عن طريق فطرتهم الصافية
وسليقتهم العربية ، أكثر مما فهموه عن طريق أدمغة فحسب ، وإلا لكان لكل
أعجمي برع في لفهم أن يفهم القرآن كما فهموه ، وليس ذلك صحيحاً ، فنحن قد
تحررنا من سلاسل عربية تنقلت بها الأيام ، وأتقنا لغة العرب فقها وصناعة ،
ولا تزال مع هذين الأمرين نلاقى صعوبة في فهم أسرار القرآن ، ونبذل جهداً في
تذوق محاسن إعجازه ، ولو كانت اللغة وحدها كافية في فهم أسرار القرآن لكاننا
نفهمه فهماً تاماً لأول وهلة من سماعه ، كما كان يفهمه العرب المطبوعون ؛ وليس
الأمر كذلك كما ذكرت لك .

فالعرب لهم من هدى اللغة إلى فهم القرآن هدى الفطرة العربية الموروثة عن
جمال الصحراء ، وخفة الروح ، وصفاء النفس ، وحرية النشأة . ألم تر إلى ما يروى
من أن بدويًا سمع قارئاً يقرأ قول الله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما
جزاء بما كسبا نكالا من الله » ثم أخطأ فقال : « والله غفور رحيم » ففزع
الأعرابي لذلك وقاطع القاري منكرًا عليه هذا الاضطراب وهو لا يحفظ القرآن
فقطن القاري وقال : « والله عزيز حكيم » .

فأشرقت أسارير البدوي وفاضت نفسه سروراً وقال : هذا ما ينبغي أن يكون .
هذا مقام يصدق ليس الحكم فيه لغة هنا ؛ إنها كانت تقبل مثل القول الأول
مادام جاريًا على قانون الكلام وأصول القول ؛ وإنما مرجع الأمر كله هنا إلى
الدوق والفتنة ، وهما الدعامتان اللتان اعتمد عليهما العرب في فهم القرآن بمد
دعامة اللغة .

فالعرب المطبوعون هم أقدر الناس فهماً للقرآن بفطرتهم ، ويليهم الذين تعلموا العربية صناعة فأجادوها . والذين لسانهم غير العربية لا نصيب لهم من فهم أسرار القرآن وإعجازه . وقد عرض الامام الباقلاني لهذا الموضوع بكلام لا بأس بإيراده قال : « قد بينا أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من المعجم والترك وغيرهم أن يعرفوا إعجاز القرآن ، إلا أن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك ، فإذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تحدوا على أن يأتوا بمثله وقرعوا على ترك الانيان بمثله ولم يأتوا به تبينوا أنهم عاجزون عنه ، وإذا عجز أهل ذلك اللسان ، فهم عنه أعجز ، وكذلك تقول : إن من كان من أهل اللسان العربي إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة وما يعدونه فصيحاً بليفاً بارعاً من غيره ، فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بمثل ما بينا أن يعرف به الفارسي الذي بدأنا بذكره ، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء »

وهنا نقف وقفة ننقد فيها قول الامام الباقلاني فتوافقه على رأيه في أن من كان لسانه غير العربية من المعجم والترك وغيرهم ، لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بالتوقيف والسمع ، لفقد الوسيطتين إلى ذلك وهما اللغة وذوقها ، ونمازضه في قوله : « إن من كان من أهل اللسان العربي ولم يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ... فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن » فإن هذا غير الحق . والواقع أنه يصيب من العلم بإعجاز القرآن نصيباً يلائم مقدار ثقافته ومنزلته من العربية ، وهو بلا ريب أنفذ بصرأ في هذا الأفق من الأعجمي المحض . وإني لضارب لك مثلاً قريباً : هأنذا رجل تفقت العربية ولا أظن أنني بلغت الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام كما يرى الامام ، ومع ذلك أشعر من نفسي بمقدرة على فهم كثير من أساليب القرآن ، وأتذوق صوراً ليست بالقليلة من محاسن إعجازه ، وكيف يمتثل أن يسوى أعجمي لسانه غير العربية بمن كان من أهل اللسان العربي ولم يبلغ الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ؟

ثم استطرد الامام الباقلاني فقال : « فأما من كان قد تنامى في معرفة اللسان ووقف على طرقة ومذاهبه ، فهو يعرف القدر الذي ينتهى إليه وسع التكلم من الفصاحة ، ويعرف ما يخرج من الوسع ويتجاوز حدود المقدرة ، فليس يخفى عليه إيجاز القرآن ، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر ، وكما يميز بين الشعر الجيد والردى ، والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب » وإنى لموافقته على قوله هذا محتفظ برأى فى أن من يعرف العربية صناعة كهذا الذى وصفه الامام لا يحسن أن يفهم إيجاز القرآن فهما عميقا صحيحا كالعرب المطبوعين على اللغة وذوقها من الرعيل الأول ، فإن اللغة قد استحال وصارت صناعة تكتسب ، وقد ترامت إلى ذوقها العام شكول مختلفة من النافع والضار ، بالفتح والاختلاط وامتزاج الأجناس ، ومحال أن يتكافأ ذوقان : فطرى أصيل ، ومكتسب دخيل . أنا — لله أنت يا أديب الطير : كم من يد لك تسديها إلى العلم ، وجولة صادقة فى ميدانه تتكشف عن جلاء وحقائق وصدق بحث .

ولما قرئ يانه وهذأت شقشقتها ساد السكون وطال الصمت بعد هذا الإجماع الذى لحق صديق المصفور ، وتجلجلى صوت القارى فى أروع مظاهره وحلاوة إيقاعه ، فنظرت المصفور مطرقا برأسه ممعنا فى التفكير ، ثم أسارى وجهه وما يتضح على مقاطعه من تأثر وإشراق ؛ على أنه يعانى أمرا جديرا بالنظر والتقدير ، حين كان القارى البارع يتلو قول الله عز وجل : « إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر . إنه كان بعباده خيرا بصيرا » فأومأ إيماء مفاجئة خفق لها قلبي ، واعتدل فى مجلسه وطوقنى بنظرة طويلة تبدو من خلال صفائها دخيلة نفسه ، وكذا الطيور لا تعرف كتمانها وليس لها سر مستور كالأإنسان ، ولا تحمل ضغنا ولا هما وإنما تنظر إلى الحياة من جانبها السار الفياض بأنواع الجمال والنبطة ، فلا تراها إلا منتقلة صائحة بأناشيد البهجة والحبور ؛ وإذا صاحبنى يقول : أستمعت ما ختمت به هذه الآية من ختام يمد غاية فى الانسجام والملاءمة لمعناها ؟ وهو « إنه كان بعباده خيرا بصيرا » بعد أن ذكر أنه يعلم أحوال عباده وأنه يجرى أرزاقه عليهم وفقا لما تقتضيه مصالحهم وأحوالهم فييسطه لمن يشاء ويقدره لمن يشاء على كثرة عددهم

لا تخفى عليه في هذا السبيل منهم خافية ، ثم بين أن أحوالهم ومضالهم معلومة له في السر والعلن وهذا منتهى الإحاطة والشمول بالختام بكلمة « خير » الملائمة للسر ، وكلمة « بصير » المناسبة للجهر ، وهذا غاية البلاغة
أنا — كأنك تقصد أن فواصل القرآن ملائمة تمام الملائمة لما يقدم قبلها من معاني الآيات

المصفور — هذا الذي أقصده ، ولست أعلم أنكم يا معشر الأنس تسمونها فواصل ، ولقد نهى هذا القاريء الكريم بقراءة هذه الآية إلى هذا المعنى الذي لم أفطن إليه من قبل . فله جزيل الشكر

أنا — هذا طراز جديد من البحث رائع معجب ، فهل لك أن تزيدني في هذا السبيل بياناً فقد شوقني إليه

المصفور — إن الأمثلة تتداعى في ذهني وتتكاثر على واني لذا كر بعض مايجول في صدري ، استمع إلى قول الله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ، والله سميع عليم » لما كان الحلف يتعلق بقول ونية ختمت الآية بكلمة « سميع » الملائمة للقول ، وكلمة « عليم » الموافقة للنية . ثم استمع إلى الآية بعدها « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم » إنك ترى هذه الآية قد اشتملت على نوعين من اليمين : اللغو وهو ما لا عقد معه كالذي يسبق به اللسان أو ينطق به صاحبه جاهلاً معناه ، ويمين الجدل الذي صاحبه النية وبه تكون المؤاخذه ، وقد ختمت الآية بكلمة « غفور » الملائمة للأول غير المقصود ، وكلمة « حلیم » الملائمة للثاني ، فالمراد أن الله حلیم لا يعجل بمؤاخذه صاحب هذه اليمين ليبقى طريق التوبة مفتوحاً أمامه . وهذا من أعجب ما ترى من أساليب القرآن التي تفيض بهذه الفواصل الرائعة البالغة أعلى ذروة من السمو البلاغي

وإني لما رأيته من طريقك إلى معرفة أسرار الفواصل أزيدك شيئاً آخر . قال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعيمًا بكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً » فتأدية

الأماني إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالإتصاف ، عمل يتضمن أقوالاً وأفعالاً ،
فتمت الآية بكلمة « سميع » الموافقة للأقوال ، وكلمة « بصير » المناسبة للأفعال .
ولو ذهبت بك استقصى أسرار الفواصل لطال في الطريق وعظمت على الشقة ،
ولكني أكتفي بما سردت لك وفيه الكفاية ، لتذوق ما تريد من أسرار الفواصل
بالتقاييس إليه

أنا - أشكر لك هذه المنة التي أسديتها إلي العلم والأدب . وكان الوقت قد
حان للانصراف فقمنا ذاهبين ، حتى إذا كنا في منتصف الحديقة بين الأشجار مال
صاحبي إلى ظل شجرة قد تجمع على يمين الساري لكثرة الأضواء الواقعة عليها
من اليسار ، فاشمرت إلا بصوته المذبذب يميني ويخفق أجنحته في الهواء ،
وانطلق في سواد الليل يشق طريقه إلى عشه ، وأنا مقيد النظر إلى هذه الجهة ،
معجب بهذا الصديق العظيم الذي مرتني بصحبته الأيام

عبد اللطيف المغربي

على هامس البطولة والوفاء

رجلس

بقلم عبد العزيز عتيق

المدرس بمدرسة عباس الابتدائية للبنات



- ١ — قصة من قصص الحروب القديمة التي كانت بين رومة وقرطاجنة
- ٢ — رجلس: قائد روماني كبير، أخذه القرطاجنيون أسيراً في إحدى حروبهم
- ٣ — تبدأ القصة بزيارة بعض القواد القرطاجنيين لرجلس في سجنه
- ٤ — لقد كانت غايتهم من هذه الزيارة، أن يحملوا رجلس على أن يمهّد السبل للصلح بينهم وبين رومة

— ١ —

رجلس : لقد أخبرت من حراس هذا السجن أنكم تريدون التحدث معي أيها السادة .

قرطاجني : نعم ، بذلك بعثناهم إليك . ولقد أتينا الآن لنملك أن الحرب الحالية يجب أن تقف عند هذا الحد . إن هناك خسائر فادحة من الأرواح أصابت كلا الفريقين ، ولذلك فكرنا حتى أنهينا إلى ما يصح أن نصالحكم عليه ! وقد أتينا الآن لترجع إلى رومة ، فتعرض على قومك أقصى ما يستطيع القرطاجنيون أن يقبلوه أساساً للصلح ، وردّ جيوشهم عنكم !

رجلس : لست أدري لماذا تتجشمون كل هذا السير ؟ أالصلح جثم أيها السادة المنتصرون ؟ وكيف أقدر أن أساعدكم ؟ ألسأ الآن أسيراً لديكم ؟

قرطاجني : نحن موقنون أن الرومان لا يعرفون شيئاً عما أصاب جيوشهم

هنا في إفريقية ، ولا عن الحال الممنوعة التي صار إليها الجند بعد هذه الهزيمة . وفي اعتقادنا أنهم متى عرفوا أنك قد خسرت الموقعة فإنهم سيرحبون بقرصة الصالح معنا !

رجلس : أيها السادة : أعتقد أن رومة ستكسب هذه الحرب ، كما أعرف أن شعبنا هيهات أن يُسلم ، أو يُسرح جيوشه ، حتى يدخل من باب قرطاجنة ، ويقرّ فيها ! وإذا فلام وكيف الصالح معكم ؟؟
قرطاجني : يجب أن تظل مستيقناً يا رجلس أن رجال رومة المسؤولين ، لن يُقرّوك على هذا الوهم متى فهموا أنك الآن أسيرنا ، وأن البقية الباقية من جيشك في أيدينا ، وأن قرطاجنة صارت أمنع من عقاب الجوّ أمام هجمات قواتهم التي هي الآن في حوزتنا وتحت رحمتنا !

رجلس : إن ما قلته — أيها السيد — حق ، غير أن الرجال الذين هم أعظم مني في بلادى على أهبة الاستعداد للتضحية بأرواحهم ، وبذل حياتهم رخيصة في سبيل رومة ! على أن من أكبر أمنيائى ألا تستغرق هذه الحال المصيبة الراهنة أطول من ذلك الوقت ! ولكن ماذا أعمل ؟ وأى شيء تريدونه منى يا رجال قرطاجنة ؟

قرطاجني : نريد أن نرد عليك حريتك ، وأن ندعك ترجع إلى رومة بشرطين تتمهد على الوفاء بهما ، وإلا كان من التعتذر أن نجعلك تمضى !

رجلس : إذا دعوني أعرف ما هذان الشرطان ، لأقرر أ يكون الوفاء بهما في مقدورى وطاقتى أم لا ؟

القرطاجني السابق : يجب أن تمهدنا على أنك حينما تصل إلى رومة . تقرر في الحال لمواطنيك مقدار خسائركم في الموقعة التي أسرت فيها ، كما تقرر في كثير من التفصيل كم من الجنود قتلوا ، وكم أسروا . إنهم حينما يسمعون كل ذلك منك ، لن يشكوا فيه ، وحينئذ لا يمجزهم أن

يفهموا أن رومة قد خسرت الحرب ، فيميلوا إلى السلام والمهادنة
والصلح !

رجلس : إننى أستطيع أيها الرجال أن أعد بذلك . ولكن ماذا يكون الحال
إذا أبَوْا الصلح ، وثاروا عليه ؟

القرطاجني : إذا أبوا الصلح كان من الواجب أن ترجع إلى قرطاجنة ، حيث
هذا السجن الذى أنت فيه الآن . وذلك هو الشرط الثانى !

رجلس : أعاهدكم على هذين : سوف أقرر لهم خسائر الموقعة ؛ ولن أعجز
عن ذكر العدد الحقيقى لمن قتلوا أو أسروا . وكقائد رومانى بنى
بكلمته ، أعد بأن أعود إليكم إذا أبى رجال رومة الصلح والنظر
فى شروطه !

قرطاجني : إذا لقد اتفقنا ، وفى الغد سنعرض على حكومة قرطاجنة ، ما انتهى
إليه حديثنا ، ثم نلتزم لك الأمر ، لتمطى حرية العودة على ظهر
أول سفينة تقلع إلى رومة !

رجلس : أشكركم أيها السادة ، وسعدتم مساء
القرطاجنيون : سعدت مساء يا رجلس

— ٢ —

« رجلس جالساً فى منزله مع عدد من قواد

الجيش الرومانى ، ورجال الحكومة »

رجلس : مرحباً بكم أيها الأصدقاء فى منزلى

سنسناتنس : إنه امرور عظيم يا رجلس أن تكون ثانياً فى رومة ! وايسن أسعد

لرومة من أن تتاح لها الفرصة التى ترى فيها قوادها ! وإن مما تحتلج

له أفئدتنا أن حرب القرطاجنيين قد احتفظت بكثير من خيرة

رجالنا فى أفريقية ! ولقد سمعنا أنك عائد إلينا بأخبار جديدة من

أعدائنا ! !

رجلس : إن ما سمعتموه أيها السادة حق ، فقد عدت لأقرر لكم أن الحرب في إفريقية ماثلة ضدنا الآن ، وأنتا قد خسرنا المعركة الماضية التي اشتركت فيها

هوراشيوس : خسرناها يا رجلس ؟؟

رجلس : نعم ، في هذه الموقعة كان كل جنودى بين أسارى وقتلى ...! حتى لقد أخذتُ أنا نفسى أسيرا

هوراشيوس : وأنت يا رجلس ؟

رجلس : نعم !

هوراشيوس : وكيف نجوت إذا ؟

رجلس : لقد أطلقنى القرطاجيون لأصارحكم بحال الحرب الحقيقية ، ولأعرض عليكم أنكم إذا رجوتم الصلح ، فإنهم يستطيعون أن يملوا عليكم الشروط التى يريدونها !!

سنسناتس : صلح ؟! أنت يا رجلس ، يا أيها الجندى تأتى إلينا لتتكلم عن الصلح مع العدو ؟

رجلس : نعم ، بهذا أرسلنى وعاهدنى ، وها أنا قد وفيت بوعدى !

سنسناتس : ولكن ما رأيك أنت كرومانى يغار على كرامة وطنه ، وكقائد يعرف حقيقة الحال هناك في إفريقية ؟

رجلس : وهل تأخذون بمشورتى إن أنا أنثرت أو تكلمت ؟

الحاضرون : لتتكلم يا رجلس ! لتتكلم طويلاً كما تحب ! إنه ليهما أن نسمع كل ما فى نفسك !!

رجلس : إننى كقائد رومانى أنصح إلى أبناء وطنى أن يرفضوا هذا الصلح بقوة ، وألا ينظروا فى شروطه ! حقاً إننا قد خسرنا فى عدة مواقع وأن قواتنا فى إفريقية لا تقدر الآن على أخذ قرطاجنة ، ولكن

عقيدتي الراسخة أننا في مدى قصير سنفنتصر ثانية . إن
القرطاجنيين خسارهم فادحة ، وإن تعبههم وسأمهم من الحرب يغالبان
عليهم ، ولذلك فهم يمرضون الصالح علينا توجساً من المستقبل ؟
سنسناتس : هذه أخبار سارة يارجلس ! وإذا كنت أنت الشخص الوحيد
الذى نستطيع أن نثق في أقواله عن النتيجة وحال جنودنا المعنوية
فهل تشير علينا بمواصلة الحرب ؟

رجلس : نعم ، بكل وسيلة افعلوا ، إنكم إذا واصلتم الحرب بعض الوقت ،
فإن قرطاجنة ستصير في قبضة أيدينا !

سنسناتس : إننى عن نفسى ، وعن كل رومانى حكومة وشعباً ، أريد أن أعبّر
عن الشكر العظيم لما قلت ! لقد جمات بهذا التوجيه الجديد واجبتنا
نحو إنقاذ سممتنا الحربية مائلاً أمامنا

— ٣ —

« بعض الرومانيين يدخلون على رجلى ،

وهو يتكلم مع أسرته »

سنسناتس : لقد أننا نتحدث إليك عن القواد ورجال الحكومة فى رومة — إن
رغبتهم شديدة فى أن تُتلقى إليك قيادة أحد الجيوش الجديدة .
الجيوش التى قد أعدناها وهبناها للمسير إلى إفريقية

رجلس : أهذه رغبتهم ؟

سنسناتس : أجل ، فهم يمتقدون أن خبرتك الطويلة ، وفهمك التام لحالة
الحرب فى إفريقية ، وما تستدعيه من خطط واستحكامات يجعلك
الرجل الأول الذى يناط به هذا الواجب !

رجلس : لا تأسف إذا قلت لك : إن هذا مستحيل تماماً !

سنسناتس : مستحيل ؟ لماذا ؟

رجلس : لأنه يتحتم على أن أرجع غدا

سنسناتس : إلى أين ؟

رجلس : إلى قرطاجنة !

زوجته : (متعلقة به) ترجع إلى قرطاجنة ! محال ! لن أستطيع السماح لك

بفراقنا مرة أخرى ! لتبق هنا بين أطفالك تنظر إليهم وترعاهم !

إني أتوسل إليك أن تشفق على وعليهم قبل أن تعزم !

سنسناتس : ترجع إلى قرطاجنة ؟ إنه لغباء ! أتدري ماذا سيحدث لك حينما

تعود إليهم فتذكر أن حكومتنا قد رفضت أن تنظر في الصلح ؟

رجلس : كنت أعرف جيداً أن قومنا لن يرضوا بصلح لا تكون فيه

قرطاجنة جزءاً من إمبراطوريتهم ، غير أنني قد وعدت بالعودة في

الحال إلى قرطاجنة ، عند رفض الصلح

زوجته : إن معنى ذلك هو موتك المحقق !!

رجلس : إنني أعلم هذا المصير تماماً منذ أن تركت قرطاجنة ؛ ولكنني أردت

أن أودع أطفالي ، وأن أجعل زوجتي تعرف أنني أريدها شجاعة

كما يجب أن تكون المرأة الرومانية ، كما أردت أن أستحث رومة

على مواصلة القتال ، فاعتقادي الجازم أنه لن تمضي بضعة أشهر حتى

يرفرف العلم الروماني على ربوع قرطاجنة !

سنسناتس : يالك من شجاع يارجلس ! إن اسمك لن يُنسى من قلوب الرومانيين !

رجلس : كل ما أبتنيه أن تُعني رومة زوجتي وأطفالي كي لا يحتاجوا أبداً

إلى المال أو الأصدقاء ، والآن وداعاً يا أبناء وطني ! وداعاً فالصباح

قد أوشك وما زال لدى الكثير مما أريد أن أقوله لزوجتي وأطفالي

قبل الرحيل !

الرومانيون : عم مساء يارجلس ! إن كل مانفوهت به الآن سنملنه في الصباح إلى

أبناء رومة جميعاً ! أجل سنذبحه عليهم ليملّقه كلُّ روماني داخل

إطار في أطواء نفسه ، وأعماق فؤاده . فما كانت الامبراطورية ،
إلا صنع رجال من طرازك ، ووليدة كلمات مُشرية بالقوة والثقة
والإيمان ككلماتك !

— ٤ —

(رجلس يعود إلى قرطاجنة)

القرطاجنيون : ماذا وراءك يا رجلس ؟

رجلس : لقد وفيت بوعدى وعدت لكم

قرطاجنى : ألم يقبلوا الصلح ؟

رجلس : نعم ، لقد رفضوه وناروا عليه .

قرطاجنى : ألم تذكر لهم حقيقة الحال هنا ؟

رجلس : بلى . ذكرت ، ولكنهم رومانيون يغنون دائماً للموت !

قرطاجنى : إننا نريد أن نعرف ماذا كانت إجابتهم على مطالبنا .

رجلس : إجابتهم ؟ إجابتهم جيوش مستأسدة ، إن لم تصلكم غدا فبعد غد !

قرطاجنى : الجيوش التى عبأها أنت ، ثم أتيت فى طليعتها هادئاً ! !

قرطاجنى آخر : إن هذا الرجل الدموى خطر علينا فى الحرب والسلم فاقتلوه !

قرطاجنى ثالث : لا تقتلوه فقط ، بل مثلوا به تمثيلاً وحشياً فظيماً !

قرطاجنى ثائر : بل تمثيلاً يزلزل كيان كل روماني على وجه هذه الأرض !

القرطاجنيون : أجل ، اقتلوه ! اقتلوا هذا الرجل الغامض ، قدمه نصف انتصار !

رجلس : افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنكروا أنى وفيت لكم بشرطيكم !

قرطاجنى : صه أيها البركان الأدبي ! أميتوه سريعاً يا رجال !

رجلس : ثقوا أنكم لا تقدرون على موتى

قرطاجنى : لا نقدر ؟ اسحقوا يا رجال هذا النمر الرومانى المأفون !

قرطاجنى : أجل لتجعلوا أشلاء الآن طعاماً لهذه الطيور الإفريقية المحلقة

رجلس : لتفعلوا بهذا الجسم ، بهذا الغفص الغاني ما تشاءون ، أبا الروح
فانه ينتظركم هناك فوق هذه المنحدرات ، وعلى سفوح تلك التلال
لينقل جيوش الرومان وسفن الرومان إلى قرطاجنة على بحار ترخر
من دمائكم

قرطاجني نأثر : لتخرسوا هذا الروماني التوقع ! أميتوه ! أميتوا هذا الجبل الناطق
رجلس : (وعلى شفتيه آخر ابتسامة) أجل أميتوه يا غربان إفريقية ليحيا !

لقد وفي رجلس بوعدده حين عاد إلى أعدائه ، ولقد كسب الرومانيون الحرب
في النهاية ، وانتصروا انتصاراً عظيماً !
ولكن الأجل من كل الانتصار ، هو أن التاريخ لم ينس كم كان رجلس
شجاعاً وفياً ، وستذكر الأجيال أن رجلس جاد بحياته الثمينة في سبيل كلمة
الشرف التي عاهد عليها أعداءه القرطاجنيين !

عبد العزيز عتيق

(عن الانجليزية)

الجندى والشباب

بقلم محمود ابراهيم محمد

المدرس بمدرسة الأمير عمر طوسون بالإسكندرية

شاد الحياة على كريم حياته	ومضى يُبارى الدهر في عزيماته
تمتعش الموت يستبق الخطا	كما ينال الخلد من نهلاته
لا ينزل الفزع الأليم بنفسه	قلب الشجاع يؤزّ في لبّاته
خلفت أنامله لقائم مرهف	الموت يلعب في صفاء شبابه
من عزمه نسجت غفارة رأسه	وشبابه الوثاب من عدّاته
هو فيصل التاريخ في هجائه	الحكم رهن حياته ومماته
أمل البلاد على مضارب سيفه	فاذا كبا فالويل في كبواته
والنصر معقود بحسن بلائه	ووفائه ومضائه وثباته
هو حارس الوطن الكريم وأهله	لا ينثنى في الذّب عن حرّماته
تلقاه في عدد الحروب كأنه	ليث تجمع في كُسا لبّداته
قصف المدافع بعض ما يلهو به	وتطائر الهامات من لذاته
تهبّى الدماء على أسنة رجه	كالنّيت جاد القفر من ثرائه
ينقض في جوف الظلام كأنه	من رُسل عزرائيل في صرعاته
يتخطف الأرواح من آجالها	ويجود بالأشلاء في رحّباته
ألف السهاد فما يُسمّن نحوه	إلا رأيت الذّب في يقظاته
جلد على مضض الصراع وبأسه	لا يعرف التّسام في كُرّاته
وكان هيكله بناء شامخ	لا تهدم الأنواء من لبّيناته
لورحت تبحث في قرارة نفسه	لوجدت نبوى النصر في طياته

كم ذا يروح مضرجا بدمائه وبشاشة الإيمان في قسماته

يشدو بلحن الحُبِّ في أوطانه ويوقع الأنتقامَ في أناته
 وإذا تمثَّل للخلود بموته لفظَ البقية من لظى نفثاته
 قدَّرَ الجميعُ فداءه فبنوا له قبرا يحوط المجد كل جهاته
 هو روضة عبقّت بضائع نشرها تنضوع الأنفاس من نفحاته
 هو رمز تقديس الجهود لمن به نهض الوجود على كتيب رقاته
 فلو أن تقديس الجهود عبادةً لرأيتُه معبود كل عِدَّاته

ربوا الشبابَ على الجلادِ قاته ربوا الشبابَ على الجلادِ قاته
 فالوحش لولا شرَّةٌ في طبعه لنعدا مجدَّل فانتك بفلاته
 والخير لولا الشر أمسى ربه من سطوة الطاغين في غمَّراته
 إني أرى الحق الصراح محجبا منذا يحلى الحق من شبهاته
 السيف إن يجفُّ القراب قاته يفرى الشكوك على أسيل ظباته

قالوا السلام فقلت: لحن مسامر ما أروع الألحان في نبراته
 السلم لا يشرى بقالة قائل لكن ينال على ضرى فتكاته
 كيف السلام وقد تقوض عرشه والحرب شبت من لسان دعاة
 السلم معبود ولكن الورى طبعوا على الإلحاد في نزغاته

واليوم تحفزنا الخطوب لدرئها هلاً سللنا الغزم من رقداته
 طوفان حرب قد تفاقم شره يشوى المسلم في لظى ويلاته
 فالصين تنتهب انتهاء جائع ضارٍ يجبُّ اليوم في نزواته
 ورياض أندلس أراها صوّحت والبوم دفَّ على رُبا خرباته
 أخشى تطلعننا الحياة بشؤمها وشباب مصر في عميق سباته

ف تكون نها في كشيء عجاة و يسود التاريخ من صفحا

ماضيك يا بن النيل أنضر صفحة
لبس الزمان بهم جديد شبابه
بمنوه يزخر بالحمد والملا
من كل مكرمة لو أن شعاعها
نشروا على الدنيا حضارة ملكهم
آثارهم في الخافقين موائل
العلم أشرق من سماء بلادهم
والعزم أورى من زناد نفوسهم
دانت لسطوتهم جيازة الورى
يتفزع الصنديد من لفتاتهم
العزة الشام طى نفوسهم
يشرون بالهيج الحياة منيمة
لم تمهم بالعزم أحلام المنى
لو مر بينهم خيال ساح

خط الوجود بها خلود نباته
كالروض شاع الحسن فى جنباته
كالبحر يأتى فى سنا دراته
للمشمس ما أفلت بفضل نباته
نحطا يدل على الوجود بذاته
تنبى بضاني المجد فى داراته
والفن شب على أكف حماه
والباس أعضل فى عيى كانه
فعدا بها المصرى نحر لداته
فيروج رهن القيد من فزعاه
منذا يرجى العيش فى ذلته
حسب الجباب مذلة بينجاته
مهما ترى الحلم فى غايته
لبس الحقيقة فى مدى لحظاته

هذا تراث الخالدين أراكم
تتقاعسون وفي الرياح حياتكم
البر ينذر باندلاع لهيبه
والأفق يُرعدُ والصواعق جمة
والناس قد سثموا جمال طباعهم
كل يدبر صيده من قرنه
الله يعلم ، لا يزيد ضراوة
والمرء يكرهه الزمان وأهله

أشباب مصر فى حمى راياته
يا ويل نفس الحر من غفلاته
والبحر يرى الموت من ظلماته
والريح (بالكروب) نبل رماته
فتتمروا كالوحش فى فلواته
فأكولهم ما كولهم بقداته
لكن يزيد العيش فى صفواته
أن يلبس الرذول من شهواته

ادفع بنفسك في المخاوف جاسراً تلق الأمان يُشع في مومته

هبوا انفضوا عنكم زمانة^(١) عهدكم وتخلصوا بالجد من آفاته
وابتوا كما بنت الحدود فانكم تتسمون المجد في ذرواته
واستلموا الماضي بضاعف أزركم ويمدكم بالرشد من عبراته
هيات يكتسب المهابة راغب إلا بماضى العزم في نزعاته
فالجهر أروع ما يشاهد نائراً ويحفه الاجلال في دفعاته
والليل لولا سدفة في أفقه ماراع مَفلى^(٢) الدو في سرياته
والنيل لا يأتي بفيض مياهه ما لم يخضب من دما صخراته
محمود ابراهيم محمد

(١) الزمانة : الآفة

(٢) المفلى : الذى يقطع الغلاة سيراً . والدو : الصحراء . السريات : جمع سرية (الدير ليلاً)

قصة تلميذ في القاهرة

ورقة النصيب

بقلم محمد سعيد العربا

المدرس بمدرسة شبرا الابتدائية للبنات

جلس « إسماعيل » على المقعد الخشبي بجانب غرفته على السطح ، يغنى في حنين الواجد ولهفة المشتاق بعض أغنيات بلاده ، ويتابع بمينيه الشمس القاربة منحدرة انحدارها اليومي كأنها جرة كبيرة تطفأ في النيل .

كان يعيش وحده في هذه الغرفة من منزل كبير في حي (بولاق) يشرف من بُعد على النيل ، فكان أنسه وسلوته أن يجلس نيامها عصر كل يوم ، من لدن عودته من المدرسة حتى يم الظلام ؛ ثم ينهض فيسرج مصباحه ويكب على مصوراتاه ودفاته .

وقد انحدر منذ عام واحد من بلده في الصعيد الأدنى ، عقب حصوله على (الشهادة) ليتم معارفه في مدرسة الفنون .

كم كان مفتونا بالقاهرة قبل أن يهبط إليها ، ولوعا بها أشد الروع ؛ ولعله لم يعم في الجِدِّ والدأب للحصول على الشهادة ، إلا لأنه كان موعوداً بالبعثة إلى القاهرة إن جاز الامتحان !

فلما هبط إليها ، راحت تتضائل وتتضائل في عيذه ، حتى لم يبقَ منها إلا هذا الحى المتيق الذى يسكنه ، وهذه الطريق الملتوية التى يسلكها كل يوم بين المدرسة والبيت ، وهذا السطح الذى يشرف منه على أطلال الحلم السعيد ، أطلال القاهرة التى عرفها في الخيال واستمتع فيها بلذة المني ووهم الحب ودنيا الشباب ؛ وكم كان يتمنى أن يتيح له الحظ ليلة سعيدة من تلك الليالى العابثة التى عاشها في القاهرة أول ما هبط إليها ؛ ولكن ... من أين له المال ؟

إنه ما يزال يذكر في لهفة وشوق تلك الليالي السعيدة ؛ وما يزال يذكر أيضاً في ألم وحسرة أنه احتمل مما أنفق في تلك الليالي ما لم تكن له به طاقة ، من ألم الجوع وذل الحرمان ؛ وأبى أن يكتب لأبيه يومئذ أنه فارغ اليد مما أسرف على نفسه وقنع من أحلامه بهذه السكنى الهادئة ، وأن يعيش من الجنة في ظل حائطها الفينان .

وعرف فيه بنات الدار شاباً جمّ الحياء ، عفيف اللسان والنظر ؛ فالفنّ الصعود إلى السطح في الأصيل يستمعن إلى ترجيع أغانيه في طرب ونشوة ، ثم يتفرقن قبل أن يزحف الظلام ؛ وألف إسماعيل أن يراهن كل يوم وأن يبادلن الحديث البريء في شئون وفنون ... وزال الحجاب بينهما على الأيام .

وأطال إسماعيل الجلوس يومئذ حتى غابت الشمس ولم تصمد واحدة ؛ ترى ماذا تمنهن الليلة ، وقد اعتاد واعتدن منذ شهر أو يزيد — منذ سكن هذه الدار — أن يجالسهن جميعاً أو أشتاتاً ساعة أو بعض ساعة كل مساء ؟ ومد الظلام رواقه على القاهرة وعلى قلب البعد اللفهان !

ودخل غرفته فأشعل مصباحه وبسط دفتره ، فإذا هو لا يكاد يرى ، وإذا الكلمات والسطور تتلوى أمام عينيه ، كما تشاهد فرقة زنجية راقصة ! فطوى دفتره ، وارتدى ثيابه ، وخرج إلى الطريق .

كانت الليلة ليلة الجمعة ، فلم يجد حرجاً عليه أن يقضيها في (السبا) ... ووقف يبابها متردداً ، وهو يحصى النقود في جيبه ، وعيناه تبتمان المارة أزواجاً وجماعات ، وهو وحده من بينهم لا يتأبط إلا هم ! ليته كان يستطيع أن يدعو واحدة من صديقاته في الدار إلى تزهة ، فيصحبها ذراعاً إلى ذراع في الطريق كهؤلاء الذين يرى ! ولكن من أين له ، من أين له المال ؟

كم يكفيه ليقضى ليلة سعيدة في صحبة فتاته ؟ لقد عرف القاهرة الآن عرفاناً تاماً فلا سبيل إلى أن يُخدع . سيُشاهد معها (السبا) في شرفة ذات أستار ، ويتعشيان معاً في مطعم فاخر ، ثم يستقلان سيارة إلى الهرم ، ويشتري لهما مما

تهفو نفسها إليه في الطريق ، وبمدئذ ... وبمدئذ يعودان إلى الدار
وفرغ من حسبته وهو يسط أصابعه ويقبضها بحصى ما يراه سينفقه ،
وعيناه تأخذه كل من يمر به جنيه ، جنيه واحد سيمنحه سعادة ليلة ،
هكذا قدر حسبته ؛ وسخر من نفسه حين انتهى إلى ذلك : من أين له الجنيه ؟
ومر به غلام يبيع الجنيئات بالقروش ، يبيع النصيب ؛ ومد إسماعيل يده
فأعطى البائع قرشاً ، وتناول ورقة فطواها بمناية ووضعها في جيبه ، كأنما هو
يطوى الجنيه الذي سيصل بين يقطته وأحلامه . ثم عاد إلى البيت فلم يشهد السبا
لم يفكر في شيء من أمره في تلك الليلة ، فنام ملء عينيه وملء بطنه ؛ ورأى
أباه في المنام بجلبابه الأسود الفضفاض ، وعمامته التي تكبس أذنيه وبعض وجهه ،
جالساً بين غرائر الفول على ظهر المركب المبحر إلى الشمال ، يحصى ربحه ونفقته ،
وقد اغبرت لحيته وعلا التراب كتفيه

ونفض في الصباح فتى كل ما كان من أمره ، وصعدت إحدى سواحبه
إلى السطح لبعض شأنها ، فحبتة وحياتها وهو يتسم ؛ كأنما يخفى عنها نبأ ساراً
يريد أن يفجأها به . وعادت الفتاة وعاد إسماعيل إلى شؤنه
وأوقد النار وراح يهيئ الفول بيده على طريقة بلاده . سوف لا يتغدى في
المدرسة هذا اليوم ، وفي فطوره الفول ما يفنى عن النداء فلا تختل ميزانية اليوم !
ومرّ يومان ، وراح إسماعيل يكشف عن بخته بين أوراق النصيب ...
وترقب الفتيات أن يسمعن غناه فيصعدن إليه ، ولكنه لم يعد ، واستقل
أول قطار إلى الصعيد ...

مائة جنيه ! يا للبخت ! لم تكن أحلامه لترتفع إلى ذلك ! إنها ثروة ...
وقسم القود قسمين ، واشترى حافظة ثمينة فوضع فيها بعض ماريح ، وخاط
جيبه على الباقي ... لقد دبر أمراً ليخدع أباه حتى لا يجرمه المال كله

وخرج « الشيخ متولى » من المسجد ، يداعب سبخته بأصابعه ، ويتمتع
بالتبسيع والدعاء ، وهو في همٍّ لقدم ولده من غير داعية ...

وقبل الفتى يد أبيه وقال له وهو يتسم :

— « الحمد لله على سلامتك يا أباي ، لقد كنت مشتاقا إليك ! »

— « مشتاقا إلي ! وهل جئت من أجل ذلك ؟ حسبك رجلا يا إسماعيل ! »

— « نعم ، ولكن ... »

— « ... ولكن الرجل يجب أن يكون على قوة احتمال وصبر ، ولست

ولدى إن لم تكن رجلا »

— « بلى ، وإنما قدمت لأمر ... »

— « أي أمر ؟ »

— « لقد ربحت خمسين جنهما فرأيت أن أجعلها عندك ! »

— « خمسين جنهما ؟ »

— « نعم ! »

وانبسطت أسارير الرجل ، وداعبت شفثيه ابتسامة ، واتسمت حدقتاه ،

وعاد يقول :

— « ومن أين لك رأس المال ؟ لم تخبرني من قبل أنك في تجارة ! »

— « لقد ربحت ورقة نصيب ! »

— « وى ! ورقة نصيب ؟ قمار ؟ ميسر ؟ »

واستوى عوده ، وانكمشت يده ، واختلجت شفثاه ، ثم قال :

— « لا لا ، ويحك ! لا تجعلها في مالى ، إني رجل شريف ، إن مالى من

عرق جيبى فلا أريد أن يحقه المال الحرام ! »

— « أبى ! »

— « أسكت ! قم فردها إليهم ، دعمهم بفرقونها على أصحابها المساكين . من

يدركم بئس اجتمعت القروش حتى عادت خمسين جنهما ؟ إنهم يندعون الجاهل

البائسين فيسلبونهم القروش القليلة التي يملكونها ، ليوهوهم أنهم سيقاسمونهم

بعض ما يجمعون ، بعض ما يسرقون ! »

— « وهل يمكن ... ؟ »

— « يمكن أو لا يمكن ، فلن أجعلها في مالى ، إنها ملوثة ، قدرة ؛ هل تعرف

من أين اجتمعت ؟ »

— « لا أعرف »

— « المال الحلال يُعرف دائماً مأثاه ... »

كان قلب الولد جذلان ووجهه عابس ، ولم تنته المناقشة بينهما إلى حد ؛
فقد تخرج الشيخ الورع أن يضم ربح (الميسر) إلى ماله ، ولكنه لم يسأل نفسه
عما سيفعل ولده بالمال

وعاد إسماعيل إلى القاهرة ، ولكنه لم يعد إلى داره إلا بعد ليال ثلاث
وأطل الفتيات من خلف الأبواب يشهدن إسماعيل عائداً إلى الدار ، يصعد
الدرج في زهو وكبرياء ، وعليه حلة جديدة ، وفي عينيه فتور وتكسر ينبئ أنه
قضى ليله سهران

وترأى إليهن غناؤه من فوق السطح أكثر حناناً وفتنة ، كما بدا هو أكثر
مرحاً ونشاطاً مما كان ، وتبادل الفتيات النظر ، ثم ولجن غرفهن وغلقن الأبواب
لم تحاول واحدة منهن أن تصعد إليه بمراى صواحبه ؟ فقد بدا لهن مما تغير
من هيئته وحركاته أنه شخص آخر غير إسماعيل الذي يعرفنه ويشقن بعفته وأذبه
وكأنما ألقى إليهن جيماً معنى واحد ، نفججان أن يبدون له ، وإن أخذت كل
واحدة منهن تؤمل أن تجد فرصة من غفلة رفيقائها لتصعد إليه وحدها
وسبقتهن (فلانة) إلى ذاك ، ولكنها لم تظهر له أو لواحدة منهن أنها تعمدت
الصمود إليه .

واستقبلها إسماعيل ضاحكاً ، وهز يدها بلطف ، وجلسا يتبادلان الحديث ، ثم
افترقا إلى ميعاد ... ووجد الفتى تعبير رؤياه ، وكان حليماً أشرق عليه الصبح
فأتمته اليقظة التي تصنع الأحلام !

ولكنه لم يقنع بسعادة ليلة ، وعاد يتعرف القاهرة من جديد ، القاهرة التي
فتنته قبل أن يراها ، والتي ذاق فيها من ألم الحرمان أكثر مما ذاق من لذة الوهم ؛

وزاح ينتقم لشهواته التي قمها على ألم وضيق عاماً ويمض عام
ونفدت دراهمه !

لم تجر سفينة الشيخ متولى مجراها كما كانت ، فركدت ربحه ، وأدبرت
أيامه ؛ وعادت الأيام تقتضيه مضاعفة الجهد وبذل الموفور .

وجلس إسماعيل مع أبيه ذات يوم صائف يباب متجره ، ومربائع النصيب ؛
وتحلب لماب الفتى وطارت أمانيه إلى هناك ، إلى القاهرة ولبالى القاهرة ، وإلى
فلانة وصواحب فلانة ! ولكنه أفاق من حلمه إذ رأى ذراعه إلى ذراع أبيه ...
والتفت فإذا بائع النصيب واقف ، وإذا أبوه يخرج من جيبه أوراقاً يكشف بينها
عن بخته ، ثم يمزقها ويلقيها ؛ وإذا هو يشتري غيرها فيطويها ويجمعها في جيبه ،
ليضم صدره على أمل جديد ... !

وتبالة الفتى فنهض من مجلسه ليخفي ابتسامة ساخرة ، وعلى طرف
لسانه كلام ...

لم يمد الشيخ متولى إلى سؤال نفسه : « من أين اجتمعت هذه الجنيهات التي
يحاول أن يشتريها بالقروش ! فلعله كان يعلم أنها اجتمعت من قروشه الكثيرة
التي أداها هو إلى باعة البخت ، منذ تعلم أن يحاول شراء البخت بالمال ... منذ
ربح ولده ... ! »

وضحك (إبليس) من الشيخ متولى وهو يمزق الأوراق ويشتري غيرها ،
وقال لشیطان صغير وهو يعلمه :

« أنظر هذا الأبله ؛ ما أرسلت إليه ابنه إلا برسالى ، فقد علقته الحباله .
حسب الإنسان الضعيف أن أريه الحرام مرة ؛ فهذا أول عمل في طبيعته ... »

قال الشيطان الصغير : « ثم بعد ذلك ؟ »

قال المعلم : « بعد ذلك — أيها الأبله — طبيعته ... ! »

محمد سعيد العريانه

عظيم دولة الموحدين

عبد المؤمن بن علي

نشأته - خلقه - أديبه

لله أسنان محمود البسيطي

المدرس بدار المعلم

تمهيد

قامت دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين بالمغرب ، وإنما عرفت بهذا الاسم لأنها نشأت على أساس فكرة دينية خاصة تخالف فكرة (المرابطين) ؛ فإن هؤلاء كانوا يتخرجون من البحث في العقائد ، فلا يسمحون بالجدل ، ولا يرحمون من يخوضون في المسائل الكلامية أو يشيرون جدلاً في العقائد ؛ وإنما همهم الرابطة في الثغور ، والتمسك بظواهر النصوص الدينية لا يبتغون عنها حولا ، ويرون فيها السلامة والنجاة من الزلل ، ولذلك أصاب كتب الغزالي في عهدهم ما أصابها من المصادرة ، حتى كان اقتناء كتاب منها أو التحدث برأى فيها جريمة قد تؤدي إلى الهلكة أو السجن واستصناء المال^(١)

(١) حصل ذلك في عهد أمير المسلمين (علي بن يوسف بن تاشفين) المرابطي الذي تولى عام ٩٣٤ هـ ، ولكنه مع تمصبه وشدة كراهيته لأهل الجدل والرأى لم يعمل بمشورة (مالك بن وهب) أحد علماء دولته الذي أشار عليه بقتل (محمد بن تومرت) عقب المناظرة التي عقدت في مجلس الخليفة بين ابن تومرت وجهوز من العلماء ؛ فقبض قال (مالك) : إن ابن تومرت رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن وقع هذا في بلاد المضامدة نار علينا منه شر كثير ، وأشار بقتله ؛ فتوقف (علي بن يوسف) وقال : (علام تأخذ رجلا من المسلمين نجته ولم يتعين لنا عليه حق ، وهل السجن إلا أخو القتل ؟ ولكننا نأمره أن يخرج من البلد وليتوجه حيث شاء) فتوجه (ابن تومرت) ومن معه إلى مدينة (سوس) وفيها ظهرت دعوته ؛ وليس عجبا أن يفتى (مالك) هذا بما أفتى وهو ممن يشاركون في الفلفة ، فإنه متأثر بروح العصر ، حريص على إرضاء الخليفة لا يظهر معه علومه إلا ما تروج سوقه في ذلك الزمان

فلما قامت (دولة الموحدين) كان لها رأى غير ما يراه (الراباطون)، إذ كانت آراء (أبي الحسن الأشعرى) قد ملأت رموس القادة والمؤسسين لهذه الدولة، ومذهب الأشاعرة مبنى على الرأى، وللجدل الدينى المنطقى فيه نصيب كبير، على أن شيخ هذه الدولة (محمد بن تومرت) لم يكن يقف فى مسائل العقائد عند آراء الأشاعرة، بل زاد عليها الأخذ بيمض آراء المعتزلة: كنفى صفات المانى، وظاهر أن مبنى هذا الرأى عند القائلين به، إثبات الوجدانية لله على أكل وجوهها، ونفى كل مظان التعدد، لاعتقادهم أن القول بصفات المانى وهى قديمة يقتضى تعدد القداى .

من أجل ذلك أطلق المعتزلة على أنفسهم لقب « أهل التوحيد » وأخذ عنهم (الشيخ بن تومرت) هذا اللقب، وأطلقه على الدولة التى كان له الفضل فى تأسيسها (دولة الموحدين)

١ - كيف قامت دولة الموحدين؟

لما اضطرب أمر الرابطين فى بلاد الأندلس والمغرب، ظهر سنة ٥١٥ هـ بمدينة (سوس) من بلاد المغرب الأقصى شيخ من البربر كان ينتسب إلى الحسن ابن على كرم الله وجهه يسمى (محمد بن عبد الله بن تومرت) أخذ العلم عن علماء الشرق: كالغزالي (بالشام)، وأبى بكر الشاشى من علماء الفقه وأصول الدين (ببنداد) وكان ذا دهاء عظيم، ونفوذ روحى كبير، فقام يدعو إلى الله: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان سبباً فى نشر مذهب الأشاعرة ببلاد المغرب، فالتف حوله جماهير المصامدة^(١) ووجوههم وجعل يكثرون ذكر المهدي المنتظر، ثم ادعى أنه ذلك المهدي ورفع نسبه إلى آل البيت فانقاد له الناس، وما زال يحرض المصامدة على حرب الرابطين بمراكش ويبرهمهم بأنهم سيملكون ملك فارس والروم، حتى قويت شوكته، وكثر جنده؛ فقاموا معه لحرب الرابطين، وأمر على الجيش (عبد المؤمن ابن على) ولقبه بأمر المؤمنين، ثم دامت الحرب بين الفريقين حتى انتهى الأمر

(١) المصامدة ولتونة: جذمان عظيمان من البربر

باحتلال أحوال المرابطين ، وشهد (ابن تومرت) مصيرهم قبل موته سنة ٤٤٣ هـ .
 قام بالأمر بعده أمير المؤمنين (عبد المؤمن بن علي) وهو من المصامدة والسكنة
 كان ينسب إلى قيس عيلان العدنانية وكان مولده مدينة (تلمسان) من أعمال
 الجزائر سنة ٤٨٧ هـ واستوثق له الأمر بموت (علي بن تاشفين) سلطان المرابطين
 سنة ٥٣٧ هـ فملك المغرب الأقصى والأوسط ، ثم بلاد الأندلس ، وتوفي سنة ٥٥٨ هـ
 وكان عبد المؤمن فصيح النطق جزل اللفاظ محبباً إلى كل من يراه حتى كان
 (ابن تومرت) ينشد كلما رآه :

تكملت فيك أخلاق خصصت بها فكلنا بك مسرور ومفتبط
 السن ضاحكة ، والكف ماحمة والصدر منشرح ، والوجه منبسط
 وكان قد تاقى العلم على (ابن تومرت) ولازمه طويلاً واكتسب منه دهاء
 وفطنة ومعرفة واسعة بطريقة التأثير في السامعين وقد دلت مواقفه على أنه جمع
 بين الفطنة والأدب وحسن السياسة

٢ - دهاؤه وحسن سياسته

يدلنا على دهاؤه وحسن سياسته ما فعله مع أمراء (بجاية) بعد ما أزال ملكهم
 وما فعله مع قبائل (بني هلال بن عامر) الذين أغاروا من الشرق على القيروان
 فماتوا في الأرض فساداً ، وكان الفاطميون بمصر قد خلّوا بينهم وبين بلاد المغرب
 لغرض سياسي^(١)

وذلك أن (عبد المؤمن) لما استقر ملكه بالجزائر ومراكش تطلع إلى مملكة
 الصنهاجيين التي تجاوره من الشرق ، وكان في حوزة بني حماد الصنهاجيين شيعة
 الفاطميين خاصراً (بجاية) واستولى عليها سنة ٥٤٠ هـ وملك قلعة بني حماد المشهورة
 ثم أسر الملك (يحيى بن العزيز المنصور الصنهاجي) وأخذه وأعيان دولته إلى
 مراكش وبالق في إكرامهم وأنزلهم منزلاً كريماً ، وبهذا قوض ملكهم ، وجعلهم
 جلساء وذوى الصدارة في مجلسه ، فأمن مكرهم وقطع آمالهم في استرداد ملكهم

(١) لا اعرف الصنهاجيون عن مذهب الشيعة واتصلوا بخليفة (بن باد) أغمرى الفاطميون
 بهم بني هلال وكانوا ينزلون صعيد مصر وشرقيها وذلك في منتصف القرن الخامس

أما بنو هلال فقد كانوا يسيطرون بمجدهم على القيروان وهم الذين تغلبوا على الملك (تميم بن المزم بن باديس) من بني زيري بن مناد الصنهاجيين^(١) ثم أفلقوا مملكة بني حماد الصنهاجيين أصحاب (بجاية) في غربي القيروان حتى صالحهم ملكها (النصور بن المنتصر) جد يحيى بن العزيز الذي أسره (عبد المؤمن) على أن يكون لهم نصف ما تغله البلاد وأقطع رؤساءهم بمض الجهات في مملكته فلما عزم (عبد المؤمن) على دخول الأندلس بمد اضطراب أحوالها وتطلع الأفرنج إلى فتحها وإغارتهم على بمض جهاتها، أراد أن يتقى شر بني هلال وأن يأمن غاراتهم على بلاده إذا ما شغلته بلاد الأندلس، وأراد في الوقت نفسه أن يعزز جنده بصفوة من بني هلال الذين مارسوا الحروب طويلا، فدعاهم إلى الجهاد والتسير معه إلى بلاد الأندلس ووجه إليهم هذه القصيدة :

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل	وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا على الأعداء قومة ثائر	وشدوا على الأعداء شدة صائل
بنى الم من عليا هلال بن عامر	وما جمعت من باسل وابن باسل
تمالوا فقد شدت إلى الغزوة نية	عواقبها موصولة بالأوائل
هي الغزوة الغراء والموعود الذي	تنجز من بمد المدى المتناول
أهبتنا بكم للخير والله حسبتنا	وحسبكم ، والله أعدل عادل
فا ههنا إلا صلاح أموركم	وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
وتسويقكم نعمى ترف ظلالها	عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمه	وللدج السارى صفاء المناهل

فلما سمعوا منه هذه الدعوة خفوا معه سراعا فجعلهم في جيوشه وعبر بهم الزقاق ، وثم جعلهم جماعات ووزعهم على حصون الأندلس فاستوطنوها ، ثم أمر فيهم ابنه (يوسف) فكثر أعقابهم بالأندلس وفيهم زغبة ورباع وجشم بن بكر

(١) لا ارتحل الفاطميون إلى مصر تركوا على القيروان بني زيري بن مناد الصنهاجي وكانوا شيعتهم وأعوانهم

- وبهذا الأسلوب الحكيم قوى عبد المؤمن جيشه ، واتقى خطر بني هلال على ملكه ؛ فأدرك النابتين في وقت واحد

٣ - عبد المؤمن الخليفة الأريب

لا عجب أن يكون عبد المؤمن بن علي محارباً صليحاً ، فكل شيء حوله يوحى بالشجاعة ويثبت في نفسه حب الحروب وشن الغارات ، ولا عجب أن يكون له ذلك الدهاء العظيم وقد تخرج علي (ابن تومرت) الذي عرفنا من دهائه وعقله ما عرفنا

وإنما قد يبدو عجيباً أن يكون هذا القائد النوار الذي قضى أكثر عمره في الكر والفر ، ونشأ في جو لم تتوطد فيه الثقافة الأدبية ، أدبياً يقول الشعر وينقده . ويزن أقدار الشعراء بميزان دقيق ؛ ولكن لا عجب ؛ فإن اتجاهه الشخصي وملازمته للشيخ (ابن تومرت) جعلاً منه ذلك الشاعر والناقد البصير . فأما شعره فقد روى له صاحب (المعجب في أخبار الأندلس والمغرب) ما وجهه لبني هلال . وأما نقده وإدراكه قيمة الشعر فليس أدل عليهما من إيراد هذه الفقرة من (الكتاب المتقدم) مع تصرف يسير ؛ قال صاحب (المعجب) :

« خرج (عبد المؤمن) يقصد الأندلس ، فسار حتى نزل مدينة (سبّنة) فمهر البحر ونزل بجبل (طارق) وسماه جبل الفتح ، فوفد عليه وجوه الأندلس للبيعة : كأهل مالقة وغرناطة ورندة وقرطبة وأشبيلية ، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له فيه وجوه البلاد ورؤسائها ، ودعا هو بالشعراء فاجتمع في مجلسه منهم صفوة من شعراء الجزيرة وغيرهم ، فكان أول من أنشد في مجلسه (أبو عبد الله محمد ابن حبوس) من أهل مدينة (فاس) وكان يجري على نحو طريقة (ابن هاني الأندلسي) في تخير الألفاظ ذات الجلبة فأنشد :

بلغ الزمان بعدكم ما أملأ وتعلمت أيامه أن تعدلا

وبحسبه أن كان شيئاً قابلاً وجد الهداية صورة تتشكلا

ثم أنشده رجل من سلالة الشاعر الشريف الطليق الرواني فقال :

ما للمدى جنة أوقى من الهرب
وهنا ابتدره (عبد المؤمن) بقوله : إلى أين إلى أين ؟
فقال الشاعر :

أين المفر وخيل الله في الطلب ؟

وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب
حدث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب
فلما أتم القصيدة قال (عبد المؤمن) : يمثل هذا تمدح الخلفاء !
ثم أنشده شاعر من أهل (أشبيلية) يعرف بابن السيد :

غمض عن الشمس واستقص مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على الجبل !
أنى استقر به ؟ أنى استقل به ؟ أنى رأى شخصه العالى فلم يزل ؟
وهنا قال له (عبد المؤمن) : لقد ثقلنا يا رجل ! وأمر به فأجلس :

ثم أنشده الوزير الكاتب (أبو عبد الله البلنسى) المعروف (بالرصافى) فقال :
لوجئت نار الهدى من جانب الطور قبست ماشئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوابتها ليلاً لساو ولم تشب لمقور
فيضية الفدح من نور النبوة أو نور الهداية تجلو ظلمة الزور
ما زال يقضها التقوى بموقدها صوام هاجرة قوام ديجور
نور طوى الله زند الكون منه على سقط إلى زمن المهدي مذخور
وآية كأياء الشمس بين يدي غزو على الملك القيسى منذور
ومنها يصف أسطول (عبد المؤمن) :

لا تسابقن في بحر الرقاق به تركن شطية في شك وتحير
كأنه سالك منه على وشل والأرض من مهج الأسياق مقطور
من السيوف التي ذابت لسطوته وقد رى نار هيجها بتسمير
ذو المنشآت الجواري في أجزئها شكل الغدائر في سدل وتضفير
أعدى المياه وأنفاس الرياح لها ما في سجايها من لين وتعطير
وربما خاضت النيار طائرة بمثل أجنحة الطير الكواسير
كأنما عبرت تحتال عائمة في زاخر من جدى يمناه معصور

حتى رمت جبل الفتحين من كُتَبٍ بساطع من سناه غير مبهور
وهي قصيدة طويلة نكتفي منها بما تقدم . هذا وقد وجد على ظهر كتاب
(الحماسة) بخط عبد المؤمن بن علي هذان البيتان :

وحكم بالسيف لا تبعاً بماقبة وخلها سيرة تبق على الحقب
فما تنال بغير السيف مرتبة وما ترد صدور الخيل بالكتب
وإذا لم يكونا من كلامه فهما شاهد على حسن ذوقه الأدبي وتأثره في أموره
روح الأدب العربي

وبعد فانا نستطيع أن نعتبر (عبد المؤمن) من الشعراء ذوي البصر بالشعر
ونقدته بعدما سمعنا من شعره وتعليقاته السريعة الدقيقة على ما قاله أولئك الشعراء
وإذا كان الشيء يُذكر بضده فلا بأس أن أذكر هنا موقفاً لكبير المرابطين
(يوسف بن تاشفين) يظهر لنا الفرق العظيم بينه وبين كبير دولة الموحدين ؟
عاد (يوسف بن تاشفين) إلى بر المدوة (مراكش) من الأندلس بعد
مارد الفرنجة في المرة الأولى ، فلما أعاد الفرنج غارتهم عليها استجار به (المتعمد ابن
عباد) كما استجار به أولاً ، فجعل في رسالته لابن تاشفين قول (ابن زيدون) :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لبعدكم أيامنا فندت سوداً ، وكانت بكم أيضاً ليالينا
فلما قرئ عليه الكتاب هز رأسه وقال : يطلب منا جوارى بيضاً وسوداً !!
فلما شرح له بعض من في حضرته معنى البيتين قال : (جديد) . اكتبوا
إليه (إن دموعنا تجري عليه وإن رؤوسنا توجعنا من بعده) !

والآن يصح لنا أن نعتقد أنه لو استراح (عبد المؤمن بن علي) من النزارات
والحروب ، واستقر به الحال طويلاً ، لكانت حياته شعلة تذكى في نفوس الشعراء
والعلماء جذوة العلم والأدب ، وربما كان عصره — لو تحقق له ذلك — في طبقة
عصور الناصر والحكم وابن عباد

ولو لم يكن له إلا تنشئة ابنه (يوسف بن عبد المؤمن) على حب العلم والأدب
حتى رعى الفلاسفة وأبرز للعالم كفاية (ابن رشد) و (ابن طفيل) وغيرها ،
لكان جديراً بهذا وحده أن يعتبر في مقدمة الملوك عناية بالعلم والأدب

٤ - موازنة بين عبد المؤمن بن علي ويوسف بن تاشفين

هذا ولا بأس قبل ختام هذا البحث من عقد موازنة بين كبير المرابطين وكبير الموحدين :

(١) فهما يتفقان فيما يأتي :

١ - كلاهما كبير دولة أفريقية من البربر ، وكلاهما دخل الأندلس مدافعا عن الإسلام .

٢ - كلاهما أزال دولة من الدول الإسلامية ؛ فكبير المرابطين أزال دولة آل عباد بأشبيلية ، وكبير الموحدين أزال دولة بني حماد الصنهاجيين شعبة بني عبيد .

٣ - كلاهما مع ابنه يحقق معنى المثل المشهور (الولد سرأبيه) فأما علي ابن يوسف بن تاشفين فقد لقي الغزالي وكتبه من اضطهاد ما شرحناه ، وأما (يوسف بن عبد المؤمن) فهو العالم الذي شهد له فلاسفة عصره ، وفي عهده نهضت الفلسفة ، وفي رعايته ظهرت كفاية (ابن رشد) فألف كتبه الخالدة في تلخيص آراء أرسطو وشرحها

(ب) ويختلفان فيما يأتي :

١ - كان ملك المرابطين عنيفا مسرفا في النكال عند ما أزال دولة بني عباد ، فانه حملهم أسارى أذلاء وألقى بأمرهم (المعتمد) في غيابات السجون حتى مات ، وعلى العكس منه ملك الموحدين ، فقد كان كريما نبيلاً بعد ما أزال دولة الصنهاجيين فأنزل ملكها وكبراءها منزلاً كريماً بمراكش

٢ - كان كبير المرابطين مغالياً في المحافظة والتحرج ، شديد الوطأة على الفلسفة وأهل الرأي ، أما كبير الموحدين فقد كان عالماً يحب البحث ويرتاح للعلم ويمهد بصفاته وكفايته لظهور الآراء الحرة .

٣ - الفرق بينهما شاسع في الناحية الأدبية ، فأما عبد المؤمن فحسبه قصيدته لبني هلال ونقدهاته الظريفة لقصائد الشعراء يوم نزل الأندلس ، وأما كبير المرابطين فحسبه مسألة (الجوازي السود والبيض) !

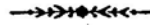
محمود علي البشبيسي

النقد الأدبي

قديمًا وحديثًا

بقلم مسنين من محلو

الدرس بالدرسة الحديوية



أحسب أن النقد الأدبي ماثي الانسان في جميع مراحل تفكيره من قديم
المصر إلى حديثه ؛ فالاجتماع الانساني في كل أمة من الأمم التي جاوزت طور
الهمجية يدعو إلى الرأي وإلى البيان وإقامة الحججة وترويض العقول بفنون
الآداب ، ولا بد أن يحدث ذلك أثره في النفوس ، من رضا أو سخط ، ومن إعجاب
أو استكراه ، ويختلف تأثير العقول باختلاف النفوس وثقافتها ودرجة استمدادها
ومقدار ارتباط الكلام بخيرها أو شرها ؛ فالخطيب والشاعر والكاتب مدوا
الناس بمصارة أفكارهم ، ونقلوا العقول من طور إلى طور ، وسيظلون مصاييح
هداية ومجال معارك أدبية مادام العقل مطبوعاً على وزن كلامهم . والمواطن
والأفكار تأخذ بحظ وافر من تراث الأدب ، وتنقي من ثمرات الأفكار ما يروقها
فاذا كان الشاعر ملهما بارع الشعر احتاج شعره إلى من يقدره ، ويزنه وزناً صادقاً
فيتذوق جمال الشعر ومبلغ حظه من القوة أو الضعف ؛ فيكون ذلك داعياً إلى
لفت الأنظار إليه وإلى نتاجه

وإذا كان المنشئ يخدم الأدب بإنشائه ، فالناقد ذو أثر حي في ترويح
الأدب أو تربيته . وعلى كل حال فالحقيقة يخدمها أصدقاؤها وأعداؤها على السواء
إذ تنجلي عنها الغشاوة ، ويجد القارئ رياضة فكرية عالية في جولان العقول
وتشعب الآراء ، وذلك يأخذ بيد الأدب إلى الآفاق العالية ، ويتأثر الأديب
بتمحيص الآراء فيتجنب المزالق ، ويمضي صمداً إلى سماء الأدب المشرقة الوضاء ؛
فيطلع على الكون بنور أدبه ، ويذيع صيته بين الناس ؛ فكأن الأدب محتاج أشد
الحاجة إلى الإنشاء والابتكار ، فهو لا يستغنى عن وصف ذلك الأثر الأدبي وتقديره

قال أرسطو : « لقد تناولت الأشعار التي ألفها أصحابها بعناية فائقة ، ولقد سألت كلاً منهم عما عنه بشعره ، فلم يكن منهم من استطاع الإجابة عن سؤالى ؛ ولقد جمعتى وإياهم مجلس ضم كثيراً من المعجبين بهم وبأشعارهم ؛ فلم يكن بين الحضور رجل إلا وهو أقدر على التحدث عن تلك الأشعار من الشعراء أنفسهم ؛ ولقد أدركت حينئذ أن الشعراء لا يكتبون الشعر لأنهم حكماء ، بل لأن لديهم طبيعة أو موهبة قادرة على أن تبت فيهم حماسة »

فلقد فرق أرسطو بين إنشاء الأدب وبين نقده ، وبين أن نقده ضرورى لبيان قيمته ومراميه ، وأبان الفرق بين إلهام الأديب الذى يكون وقت إنشائه فى جو نفسى خاص حين تكون حمرة ذهنه متقدة يصدر عنها الشرر ، وبين الناقد الذى يضع الكلام مواضعه ، وبقيسه بمقياس الفكر والدوق والمأطفة ، وأن القدرة على خلق الأدب تختلف عن القدرة على تحليله تحليلاً منطقياً ، وقد فطن المتنبي إلى ذلك فقال :

أنا مملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
وكان ابن جنى يشرح ديوان المتنبي ، ثم يقرأ ما شرحه عليه ؛ فكان المتنبي يدهش لشرح بعض الأبيات ؛ لأن تحليل المعنى لم يكن ليخطر له على بال ولم يقصده ، مع أن العقل المنطقى لا يرى غير ما يراه الشارح ؛ فبين من ذلك الفرق الواضح بين ملكة الأديب وعقل الناقد ، وأن الأدب لا يستقيم إلا بهذين الأصلين : الإنشاء والنقد

والنقد الأدبى هو تقدير النص الأدبى ، وبيان درجته الفنية ، وتمييز الأدب الراقى من التافه الذى لا يعول عليه

أعتقد أنه لم تُعنى أمة من الأمم بنقد آثارها الفنية مثل ما عنى العرب ، لأنها أمة كلام وعناية بآثار العقول ، بطبيعة حياتهم ونظام معيشتهم ، ثم توارث ذلك الخلف عن السلف ، وإذا كان لكل أمة فن من الفنون تعرف به ويشتهر عنها ، فالعرب إنما يذكرون بالفصاحة والبيان ؛ فلا عجب أن عظم إنتاجهم الأدبى على توالي العصور ، واشتدت عناية الأدباء قديماً وحديثاً بنقد كلامهم والحفل له ،

وبلغوا في تقدم منزلة عظيمة بحسب اختلاف المصور والأجواء الاجتماعية والسياسية . ولا عبرة بأولئك الأدباء الذين أوصلتهم حرفة الأدب إلى المنازل الرفيعة وعاشوا على ترديد تنمات قيثارة العرب - ولوك أسائهم - وأحاديثهم ، ثم ينكرون فضل العرب على فن النقد ، ويمجدون ما بذلوه من مجهود في تقدير شعر الشعراء ، ونثر الكتاب ، وخطابة الخطباء .

وعيب نقاد العرب في نظرم أنه كان يجب عليهم أن يمشوا ويدركوا عصر كانت وشاتوبريان وسانت ييف وتين ، ليقولوا بقولهم ، ويحللوا المواطن والأفكار والأيول

وإنه مهما يكن من أمر النقد الحديث وإخضاعه للنظريات العلمية ؛ فإن النقد الفطري ، والاعتماد على عفوا الخاطر ووحى النفس في تقدير نص أدبي ومنزلة أديب من الأدباء — يشترك فيه أديب باريس وبرلين ولندن ، وأديب البصرة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة . وقد يفعل ذلك في النفوس لصدوره عن خير به ، ويوجه إلى الأدب الصحيح أكثر مما تفعله الكتب الضخمة في اتجاهاتها وفروضها والنقد الأدبي بمصر في العصر الحاضر لم يجد أديبا يوجهه توجيها صحيحا . ويخدم الأدب الخدمة المخلصة . فإن نقاد الأدب أغلبهم من المتصلين بالصحافة وحظهم من الأدب الأوربي أكبر من حظهم من الأدب العربي الخالص . وإلا فمن منهم قرأ دواوين الشعراء في كل عصور الأدب ؟ ومن منهم درس أصول الأدب من معينها حقاً ، ووقف عندها طويلاً ، وأفنى جذوة عمره في ذلك ؛ ثم أخذ من الأدب الأوربي بنصيب وافر ، وبعد ذلك تصدر للحكم على الأدب العربي ، وفكر تفكيراً صادقاً في تنقيته بالأدب الإفرنجي ؛ فلم يبق القديم ، ولم يتورط في الإغراق والتعصب للجديد ؟ ومبلغ علمي أن في الشام بعض أفراد من هذا النوع الذي أصفه

على أن الأدباء في مصر يتمجلون الشهرة ، ويسرعون إلى ابتغاء المسكنة العالية قبل أن ينضجوا ، والسرف في ذلك خصب البلاد ، وكثرة النعمة ، وتعدد مظاهرها الجاه والثروة ، وحب الكسل ، والقرب من أصحاب السلطان . وذلك مما حط

النقد الأدبي في هذا العصر ، وجعل أكثره شهادات جاحجة في نقد الأدباء بعضهم لبعض ، لا يقصد بها وجه الأدب بل المدح والذم ، فالتقاد في مصر قضاة ظالمون ، وفي ذلك خطر عظيم نرجو أن يبرأ منه الأدب في مصر الحديثة .
والأدب في العصر الحاضر قل فيه النبوغ والوصول إلى أوج الأدب ، وتقارب الأدباء في نتائجهم ، وتجانسوا في درجاتهم ، والسبب في ذلك على ما أظن أن الأدب مشغول عن الاختصاص بالأدب ، وقصر النفس عليه ليله ونهاره إلى أسباب العيش من طرق أخرى غير الأدب المحض والسبح في بحار الآداب كل الوقت ، ولا يكون ذلك إلا إذا قدر أولو الأمر الحاجة إلى الأدب العالي ، وكافئوا الأدباء على أدبهم ، وشجعوا الإنتاج وأكثروا من المباريات ؛ فكفلوا للأدباء الحياة من طريق الأدب فحسب ، وما ذلك على مصر الناهضة بمزير .

أما النثر فقد وصل إلى منزلة راقية من بعض نواحيه ؛ فعمظت فيه الاستفاضة والبحث في نواحي الموضوع وتوفيته ، وإن كانت السياسة هي الشغل الشاغل لكتاب الصحف ، وهذا ما نأى بهم عن جودة النثر ودقة الابتكار ، وروعة الخيال ؛ فالأدب عجمالة يكتبها الكاتب ليسد بها فراغاً ، ولا يخلو من جولات فكرية حسنة ، أما كد الفكر والعمل على تغذية القراء وتنقيف عقولهم ، ففي المنزلة الثانية ، ولا يعنى بذلك إلا بعض كتاب المجلات . ولقد صدق أستاذنا المرحوم مصطفى صادق الرافعي طيب الله ثراه حين قال (إن الصحافة تبجى على فنيّة الأدب)

وأما الشعر فهو أكثر اتصالاً بالماضي منه بالحاضر ، وهو لا يمثل الحياة الحاضرة والمدينة الحديثة تمثيلاً كاملاً إلا في أبيات شاردة في أثناء القصيدة . ومع أن مصر قد تنازعتها عوامل كثيرة ، وكانت السياسة أظهر شيء في حياتها الأخيرة ؛ فإن الشعراء لم يعتادوا بعد الخروج عن أجواء المدح والوصف على الطريقة القديمة .

ولقد قرأت وأنا أكتب هذه السطور قصيدة للشاعر اللبناني حلیم دموس بعنوان (فلسطين الشهيدة) وفيها (وإن كانت على النمط القديم) أبيات تمثل السياسة الأوربية وتصفها وصفاً دقيقاً ومنها :

حذار بني قومي في الغرب عصبة تمد الدواحي ثم تملي فتكتب
 فإن كاشفتكم بالسياسة خلسة فلا تقربوها ، فالسياسة عقرب
 إذا وعدو (الغربي) فالبرق صادق وإن وعدوا (الشرقي) فالبرق غلب
 أيقسم قطر وهو يمشي لوحدة إذا فلتنح بغداد ولتبك يثرب
 وفي مصر شعراء قديرون على تحليل الحياة والعالم المأمج بصنوف العواطف
 والأفكار وأنواع الابتكار ونواحي الجمال ، ولكنهم لم يألفوا تصوير ذلك حق
 التصوير ، ولم يتمودوا خدمة الأدب إلا من ناحية الغزل المصطنع الذي لا يصور
 عاطفة ولا يستدعي الإعجاب .

وربما سمعت المغنيين الشهيرين عبد الوهاب وأم كلثوم فانصرفت نفسي عن
 المعنى والتصوير إلى النغمات الفنية والصوت الموسيقي .
 ولقد قصر الشعراء بنات أفكارهم على التيارات المصرية ، فإن كانت في مدها
 إنجهو إليها ، وإن كان في جزرها انصرفوا عنها .

وأنا أريد أن يكون الشعر صورة صحيحة للحياة ، وفي رأي أن الشعر العربي
 يمثل حياة العرب في عصورها المختلفة إلا في العصر الحاضر ؛ فإن أردنا فهم الحياة
 واضطرابها الفكري والسياسي في العصر الأموي التمسناها في الشعر ، وإن أردنا
 أن نفهم الحياة الجديدة في العصر المماليكي التمسناها في الشعر أيضاً . أما العصر
 الحاضر فلو جمنا دواوين الشعراء وقرأناها لم تكفنا لفهم الحياة الاجتماعية
 والسياسية والاقتصادية في مصر في هذا الزمن

أما الخطابة فليست بواعثا كبواعث الشعر والنثر في كل المصور ؛ فهي بنت
 الظروف والحوادث ، وهي كيماء البحر إن عصفت بها الرياح ماجت واضطربت
 وأحدثت دويماً يسمعه القاصي والداني ، وانبعثت مع الخطابة القدرة والبلاغة
 والتصوير والتأثير ؛ وإن هدأت الرياح صار الماء ساكناً هادئاً لا يحس أحد صوته
 والخطابة إنما يخلقها الغضب والإيمان بفكرة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية
 والناس في مصر إنما يفضون للسياسة ، لذلك أخرجت خطباء مصانع ، ولم أجد
 أحداً يفض للاقتصاد إلا طلعت حرب باشا ، وما رأيت من يفض للاجتماع

إلا فتاة متحمسة تكتب في الأهرام عن قضية الفلاح ، وتلقب نفسها (ابنة الشاطيء) فلقد سمعنا نخطب في بؤس الفلاح ، ووجوب التفكير في شأنه والعناية به ، فهزت أوتار القلوب بقدرتها على التصوير ونقل التأثير من نفسها إلى أنفسنا والمحاضرات الاجتماعية فاشية في مصر ، ولكنها لا تريد على أنها تحليل للموضوعات ، ودرس أقرب إلى العلم منه إلى الخطابة . لذلك لا تحدث في مصر دويكا ، ولا تجاوز الآذان إلى القلوب

النقد في العصر الجاهلي

كان الشعر أهم فنون الأدب قبل الاسلام ، وما زال يرقى حتى وصل إلى درجة السكال ، ولا بد أن يكون النقد أثر فيه تأثيراً شديداً حتى نضج وأوفى على الغاية . أما تدوين ذلك النقد في عصور التدوين فلم يكن إلا تنفكاً مبثوثة في تضاعيف كتب الأدب ، ومقتضبات هي قل من كثر مما نقد النقاد وأخذ الشعراء بعضهم على بعض ، وإلا فأن صور المراك الأدبي الذي كان يمد كل عام في سوق عكاظ وغيرها من الأسواق ؟ وأن صور التثقيف للشعر وتربية الملكات حتى كانت أسرة زهير بن أبي سلمى كلها من الشعراء ؟ لا شك أن مجالات النقد كانت قائمة في نواحي الجزيرة ، وحلبات الشعراء كانت تعقد بين القبائل في النوادي الحين بعد الحين ، وكانت حوافز الشعر كثيرة ، وعوامل الاجادة ملحة ؛ فكانت القبيلة تقيم الولائم والأفراح إذا نبغ فيها شاعر ؛ لأنه معقد شرفها ، والدائد عن أحسابها وأنسابها ، ولقد كان العرب جد حريصين على سلامة لغتهم وفهم أسرارها لثلاث تكون في القصيدة كلمة نابية أو معنى غير ملائم

سمع طرفة بن العبد التلمس ينشد بيته :

وقد أناسي الهمَّ عند احتضاره بناج عليه الصيمرية مكدم
فقال طرفة : استنوق الجمل ، لأن الصيمرية سمكة تكون في عنق الناقة لا البعير
وأخذ العرب على المهمل بن ربيعة أنه كان يبالغ في القول ، ويدعي فيه بأكثر
من فعله ؛ ولا شك أن هذا نقد لصدق القائل ، وأنه يجب أن يكون القول صادراً

عن عقيدة ، ولذلك كانوا إذا سمعوا شاعراً أو خطيباً أجاد الكلام وبلغ النائية ، يقولون : فلان أساب المحرّ ، وطبق الفصّل . وهذه ناحية من نواحي النقد التي يهتم بها في العصر الحديث ولو حفظ لنا التاريخ ما قبل في سوق عكاظ حين أسمعت الخنساء النابغة الذبياني قصيدتها في رثاء صخر التي منها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
فقال لها : لو لا أن أبا بصير - يعني الأعشى - أنشدني لفضلك على شعراء
الموسم ؟ يقصد أنه لو لا أنه سبق بإصدار حكمه لفضلها - لو حفظ لنا التاريخ
الحوار الذي قد حدث لكأن أسبابها صادقة الشعور والإحساس ، بليغة
الآلفاظ جيدة المعاني

ولو نقل لنا غضب الشعراء أو رضاهم عن أبطال الموسم ، وأقوالهم في ذلك ،
لمظمت لدينا آثار النقد عند القدماء ، ولكن ما وصل إلينا لا يكفي في الحكم على
النقد في العصر الجاهلي ؛ ذلك أن هذا الطور من أطوار الحياة العربية كان فداً
في التاريخ العربي ، إذ كان العرب قابعين في جزيرتهم إلا قليلاً ، وكانت حياتهم
فطرية ، ونظام حياتهم متشابهاً ، والنفوس العربية فارغة للقول والتصال الأدبي
الذي طال عهده ؛ فلم يفتربوا عن أوطانهم العربية إلا للتجارة أو طلب الشعراء
للجزيل من المال في الحيرة حيث المناذرة ، وجلّق حيث الفساسة ، ثم يعودون إلى
بواديهم ، ويقضون العمر الطويل فيها ؛ لذلك توافر الوقت للاختمار ، وصقل اللغة
ثم التسليم إلى لغة قريش ، وجعلها اللغة الرسمية للعرب عامة

وقد تواتر المصور الإسلامية وهم يقولون : « أشعر الناس امرؤ القيس إذا
غضب ، وزهير إذا رغب ، ، والأعشى إذا طرب ، والنابغة إذا رهب »
ولما أراد الله لهذه اللغة الكمال حق أن يحىء القرآن بها لتخلد على التاريخ ،
وتبقى ما بقيت الدنيا

وجملة القول أن النقد في العصر الجاهلي كان معتمداً على الفطرة ، ووحى
الخطاير ، وتقدير اللفظ والمعنى ، وقوة التأثير ، وملاحظة كل عيب يمكن أن يمس

القصيدة في المعنى والاستعمال وأغريض الشعر وقوافيه .

قيل إن النابغة لما قال قصيدته التي منها :

أمن ال مية رأنح أو مقتد عجلان ذا زاد وغير مروت
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغداف الأسود

لم يجرؤوا أن ينهوه إلى اختلاف حركة الروي الذي يسمى في علم العروض الإقواء ؛ فلما دخل يثرب أسموه غناء من هذه القصيدة ، ففطن فلم يعد إلى ذلك وأصلح البيت بقوله : « وبذاك تنعاب الغراب الأسود »

وأجود الشعر عندهم المملقات ، إذ هي تمثل حياة البادية وقوة الشعر تمثيلاً صحيحاً من حيث العناية بتخير الألفاظ ، ووصف كل ناحية من حياة العرب في ركن من القصيدة ؛ وقد رجح نقاد الأدب أن تسميتها بالمملقات مجازية ، فهم يسمون القصيدة الجيدة سمطاً ، والسمط هو القلادة النفيسة التي تعلق في العنق ؛ فالمملقات معناها السموط والقلائد ، وحماة الراوية هو الذي أطلق عليها المملقات ، ولعله يقصد هذا المعنى . قال أبو زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي يسميها العرب السموط »

أما النقد الأدبي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم فقد حفلت كتب الأدب بالكثير منه ، وجال النقاد جولات قوية نافعة فيه ، وإن كانت غير مرتبة فهي فنية وسنمرض لها في المقال التالي إن شاء الله .

« المدرسة الحديوية » مسنين حسن مخلوف

فتح طارق ابن زياد بلاد الأندلس

بقلم عبد العظيم على فناوي

المدرس بمدرسة المادى الابتدائية

قضى الأمر — أو كاد — واندثرت حضارة أسسها في الغرب الإسلام على أيدي رجاله الأنجاد ، من اثني عشر قرناً ونصف قرن على قوائم وطيدة من العلم والعرفان ، ورواسي راسخة من الإصلاح والمعمران ، فزها العالم بتلك الحضارة غربيه وشرقيه قرونًا عدة ؛ هذا لأنه مصدرها ، وذلك لأنه مهيئها ، رفع الإسلام في ذلك الدهر أعلام المحبة والوودة ، فكان الدين السمع لا تعرف الموجدة قلوب أبنائه ، والمشرع المذهب لا يُحسّل أحد دون رشف مائه ، والشرع الحنيف لا يصيب بغير الحكمة والموعظة من أعدائه ، فدعا أبناء ذلك الدين الفاتح أهل تلك البلاد إلى التعاطف ؛ لا بين المسلمين وبينهم فحسب ، بل بين المسيحيين بمضمهم على بعض ، وبين أولئك وبين اليهود ؛ حقناً للدماء ، وإبقاء على الدماء ، وإخلاداً إلى العمل المجدى ، وتفرغاً لدعوة الحق ، فأزهرت البلاد أيما إزهار ، وازدهرت مقاطعاتها أعظم ازدهار ؛ حتى لقد كانت فتنة الأجيال في الروعة والجمال ، فلها الفنون لا تداني ، والصناعات لا تحاكي ، والمعارف لا تبارى ، والآثار لا تسامى ؛ على رغم ما كان يُكاد الموكلها ليلاً ونهاراً ، إعلناً وإسراراً ؛ يتقونه بكل تقية ويفتدونه بأي وسيلة لا تبسج حرمة ، ولا تهدر كرامة ، فكهم هادنوا وحالفوا لا حبساً ولكن حفاظاً على دماء غالية أن تهدر ، وكهم حارنوا وناخوا لا ولماً بتأريث البغضاء بل استئصالاً للداء أن يستشري ؛ حتى أدركها ما يدرك كل كائن وأصابها ما يصيب السامق الصاعد من خفوق وهبوط ، وسقوط وجبوت ، فأخذت تدب فيها عوامل الوهن والفتناء ، وتسرى في أوصالها الأوباء والأدواء ، على قوة مناعتها وحصانة يئتها ، ولكن الأعداء — وقد حشدوا لها أعظم حشد —

وقفوا لها كل مرصد ، وشهروا في وجوه أبطال الفتح ، والعلم ، والسلم كل منعم حتى هوى نجم الرشد والهداية ، وسقط علم المدينة والحضارة ، وطرد العرب منها من القرن الخامس عشر الميلادي إلى أوائل القرن السابع عشر ، وبلغ عدد المطرودين نحو ثلاثة ملايين عربي « كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة وعلماً ، فكان ما حدث للمسلمين من الفرج أمام ضعفهم في إسبانيا ، وما حدث منهم فيها أمام قوتهم وإمكانهم تنصير الفرج بالقوة من الرحمة بالضعيف وحرية الدين حادثة يراها — حتى من لا يريد أن يرى — ، ويستدل بها على مبالغ الفرق بين آداب الأمتين ^(١) » ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي بك ؛ إذ يقول :

نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوجه قدر يحيط البدر وهو تمام
والآن — وقد أفنى بعض أبناء تلك الأمة العربية بآثارها العريقة بمخلفاتها بعضاً ، وخربوا ما عمر لهم العرب ، ونقضوا ما أقاموا من حضارة لم يستطع أن ينال منها كز الليل والأيام فنالت منها صواعق المدافع ، ومن آثار سخرت من الدهر ، فسخر عليها وارثوها قذائف الطير — نرى إحياء ذكرها أسمى على مدينة ضاعت في عصر يزعمون أنه عصر المدنية ، وحزننا على حضارة طواها من يدعون بحبي الحضارات ، في قارة يسمونها حقاً سيدة القارات ، ولا علينا إن ذكرنا ، فإن الله كرى تنفع المؤمنين ، ولا إخالها إلا نافعة مجدية

الفتح

فتحت الأندلس ستم سنة ثنتين وتسعين هجرية في عهد أمير المؤمنين « الوليد بن عبد الملك » بعد أن استأذنه في فتحها عامله على إفريقية « موسى ابن نصير » وكان قائداً بطلاً « عاقلاً شجاعاً كريماً تقياً لله تعالى ، ولم يهزم له جيش قط ، وكان والده نصير على جيش معاوية ، ومنزلته لديه مكينة » ، فهو قد ورث القيادة كبراً عن كابر ، فأذن له بعد أن أيقن أنه لا خطر على جيوش المسلمين ؛

(١) دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري للأستاذ فريد وجدي المجلد الأول ص ٦٦٢

إذ كتب إليه الخليفة ناصحاً : « خضها بالبرايا حتى ترى ، ولا تنرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » ، فنفذ موسى أمر مولاه ، وأنفذ السرايا ، فلم يصب إحداها سوء ، وحينئذ يثر موسى كنانته ، وعجم أعواد أعوانه ، فلم يجد أشد بأساً ، ولا أصلب عوداً ، ولا أوفى حزماً ، ولا أسدق عزماً ، ولا أندى صوتاً ، ولا أروع بياناً من طارق والى « طنجة » ، ومتى اجتمعت كل هاتيك الصفات في رجل فالتصر أول همه ، فقلده قيادة الجيش ، ولا يذكر المؤرخون الشيء الكثير عن شخصه ، فهم غير متفقين حتى في نسبه ، فيرى بعضهم أنه عربي ينتسب إلى كندة ، ويزعم آخرون أنه إفريقي متعرب ، ولكنى أوتر الرأى الأول ؛ لفصاحته ، وشدة منته ، ولأن موسى في ذكائه وفطنته ما كان ليطمئن في مثل هذا الأمر الجلال إلى غير العربي ، على أنه لا يمتينا نسبه كثيراً ، فقد عا قبل : « أصل الفتى ما قد حصل » وهذا شأن طارق ؛ إن لم يكن ذا حسب ونسب ، ومال ونسب ، فقد كان ذا عزيمة فنية ، وإرادة حديدية ، وبجمل بنا قبل حديث الفتح أن نلم إلامة وجيزة يعمض أسبابه :

أولاً : عرفت الأندلس بالحسن والجمال ، والغنى والثروة ، فتربتها خصبة ، وحدائقها نضرة ؛ تجرى من تحتها الأنهار ، وتجنى منها الأثمار والأزهار ، وهى وفيرة الغنى بالمعادن ، ففيها الذهب والفضة والشبه والنحاس ؛ وبها النفائس الغالية ، والجواهر النادرة ، وهذا قل من أكثر مما وصفت به في النثر والشعر قال أبو عبيد البكري :

« الأندلس شامية في طيها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة ، وحاملي الفلسفة » وقال الوزير لسان الدين ابن الخطيب ^(١) :

« خص الله بلاد الأندلس من الريح وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراة الحيوان ، ودزور الفواكه ، وكثرة المياه ، وبحر العمران ، وجودة اللباس ،

وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وايضا ألوان الإنسان ، ونيل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، واحتكام المدن والاعتبار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها ؛ وقال غيرها :

«إنها جزيرة قد أهدت بها البحار ، فأكثر فيها الخصب والمهارة ، فتي سافرت فيها من مدينة إلى مدينة ، لا تكاد تنقطع من المهارة ، ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، وبما اختصت به أن قراها غاية من الجمال ؛ لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لثلاثين عنها الميون ، فهي كما قيل :

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدر بين زبرجدة مكنون
وما قاله الشعراء فيها أنصع وأبدع ، فهم ليسوا في حاجة إلى استيحاء الخيال أو تخيل الجمال ، فحسبهم أن ينظروا ليشعروا ، ويتأملوا ليرتلوا ، ويسمعوا شدة البلايل ، ليقوموا على قيثارة المفاعل ؛ فمن ذلك قول ابن سفر الريني :

في أرض أندلس تلتذ نماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش منتفع ولا تقوم بحق الأنس صباء
وأن يمدل عن أرض تحض بها على المدامة أمواه وأفياء ؟
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاء ؟
أنهارها فضة ، والسك تربتها ، والخز روضتها ، والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرا ولا انتشار لآلى الطلل أنداء
وإنما أرج الند استثار بها في ماء ورد فطابت منه أرجاء
وأن يبلغ منها ما أصنفه ؟ وكيف يحوى الذي حازته إحصاء ؟

وحسبنا هذا ، فما قيل في وصفها كثير ، من نظم ونثر
ثانياً : رغبة الخلفاء والأمراء في نشر الاسلام ، ورفع ألويته فوق ربوع
العالم ؛ حتى يسود المعمورة نظامه ، وتشمل الكون تعاليمه ، ويدن لذلك الدين
المساح الشرق والغرب

ثالثاً : اضطراب الأمور بين أمرائها ، وتفكك عناصرها ، والإحسان تأكل

مدور كبرائها، والاحقاد تنشى بصائر زعمائها؛ فهذا بيكي ملكا سلب، وذلك يندب عرضاً انتهك، وثالث يشكو ظلماً عم، مما جعل كل فرد في نفسه شيعه، وكلا يستحق لأخيه بالدس والوقية، وهذا إلى ما تسامعوا به عن عدالة العرب في حكومتهم، وتأمين الناس على دينهم وثروتهم، ومساواتهم في الحقوق بين خاصتهم وعامتهم، حتى جعلوا العدل أساس ملكهم، وصيروا التآلف والإخاء شعار مجدهم تلك الأسباب وسواها هي التي حلت موسى بن نصير إلى أن يستمع إلى مشورة يليان أمير «سبته» في الفتح؛ حتى يخلو له الجو من لدريق مليكه عدوه اللدود؛ لسلبه عرض ابنته كرهاً، «وقد كان من سير أكابر الأعاجم بالأندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم، والتنويه بهم إلى بلاط الملك الأكبر بطليطلة؛ ليصيروا في خدمته، ويتأدبوا بأدبه، وينالوا من كرامته؛ حتى إذا بلغوا، أنكح بعضهم بعضاً، استئلافاً لأبائهم، وحمل صدقاتهم، وتولى تجهيز إناثهم إلى أزواجهم، فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لدريق على «سبته» وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس، وأهلها على النصرانية، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال^(١) تكرم عليه، فلما صارت عند لدريق وقعت عينه عليها فأعجبته، وأحبها حباً شديداً، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضاها، فاحتالت حتى أعلمت أباه بذلك سرّاً بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها جداً، واشتدت حميته وقال: ودين المسيح لأزبلن ملكه وسلطانه، ولا تحفرن تحت قدميه، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس بالذي سبق من قدر الله تعالى^(٢)»

جهز موسى جيشاً عدته سبعة آلاف جله إفريقيون وقلة عرب، ومن «طنجة» اخترق به طارق المضيق على أربع سفن ليوليان، وكان لطارق العين الساهرة، واليد الضاربة، والرأي الحازم، والعزم الصارم؛ ليشل عرش سالب شرفه ومقوض مجده لدريق، فما زالت السفن تنقل الجيش حتى توافى بالجبل المسمى الآن «جبل طارق» ومنه سار طارق فاتحاً حتى فتح فرضة الأندلس

(١) كانت تدعى «فلورندا»

(٢) ورد بالجزء الثاني من النسخ صفحة نمرة ١٧٥٠ (الطبعة الأخيرة)

« الجزيرة الخضراء » وبلغ لتدريب الخبر فوق عليه وقع الصواعق ، وسار من « قرطبة » في جيش جرار يتراوح بين السبعين ألفاً ومائة ألف ، فلم تضطرب لطارق سكينته ، ولا ترعزت له عزيمته ، ولكنه أخذ بالحزم ، فبعث إلى موسى يسأله مدداً ، فأمدّه بخمسة آلاف على سفن أعدها ، ولما تكامل الجيش أحرق طارق السفن ؛ حتى يقطع على الجيش أمل العودة إلى بلادهم إن لم يتح لهم النصر ، وقام في الجيش خطيباً ، فخطبهم خطبته العاصفة القاصفة التي تجمل من المنتخب الرعيد الأسد الصنديد ، كل كلمة من كلماتها صواعق وحمم ، وكل فقرة من فقراتها سمير يلهب ، ويكفيها وصفاً أنها عصقت بدولة ، وقوضت دعائم مملكة ، وثقلت عرشاً مؤثلاً ، وقد اشتملت على سياسة بارعة ، وحكمة رائعة ، فنشأهم وأملهم ، ووعدهم ووعدهم ، فمن هذا الذي لا يرغب أن يكون الملوك سيّداً ، ولأبنائهم ربا ولبنائهم مولى ، فاسمع إليه يقول لفتيان يجرى في عروقهم دم حار فوار : « واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ؛ استمتعتم بالأرفه الأله طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه أوفر من حظي ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالمعيقان ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التجان ، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال غزباناً ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ؛ ثقة منه بارتياحكم للطمان ، واستماحكم لمجالد الأبطال الفرسان » ومما تتحدث به كتب التاريخ : « أن طارقاً رأى في منامه النبي صل الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا السيوف ، وتنكبوا القسي ، فقال له : يا طارق ، تقدم لشأنك ؛ ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه . فاستيقظ فرحاً منتشياً بعلام الفخر عطفه ، وبشر أصحابه . تلك رؤياه قد تكون حقيقة ؛ فالرجل مبطل الخاطر مضطرب البال ، فليس غريباً أن يرى في نومه ما يشغله في يقظته ، وقد تكون خيالية دفعه إلى اختراعها رغبتة في إثارة جنته ، وبعث العزيمة في نفوسهم والحمية في قلوبهم ، فهذا رسول الله يتقدمهم ؛ وليس هذا الخيال غريباً على من يحرق السفن حتى لا يكون في العودة أمل

وسار بعد ذلك فأصاب عجوزاً أندلسية ، فقالت له : إنه كان لها زوج قالم بالحدثان ، فكان يחדثهم عن أمير يدخل بلادهم فاتحاً ، ويصفه بأنه ضخم الهامة ، وأنت كذلك ، وبأن في كتفه اليسرى شامة عليها شعر ، فإن كانت بك هذه العلامة فأنت هو . فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرته ، فاستبشر بذلك هو ومن معه . ورأينا في هذه القصة رأينا في حديث الرؤيا ، قد تكون خيالية ، فأوحى إلى المعجوز بما تقول ليقوى عزائم جنوده بأكثر من برهان ؛ وكأني به يقول لصحابته : هاتان آيتان باهرتان ، وعلامتان واضحتان يثبتان ؛ فلا تحشوا عديداً أكثر ، ولا عُدداً وفرت ، فلنا النصر المؤزر ، حدثنا به النبي رؤيا ، وحدثنا به العلم بشري

وقبل التقاء الجيوش أرسل لدرقيق فارساً موسوماً بالنجدة والبأس ، معروفاً بالشهامة والمنة ليحرز عدد جيش طارق ، فرآه جنود المسلمين ، فتواثبوا عليه يريدون الفتك به ، ولكنه نجاه جواده ، إذ سابق به الريح ، ووصل إلى سيده يلهث وهو يقول : « خذ على نفسك ، قد جاءك من لا يريد إلا الموت ، أو إصابة ما تحت قدميك ، قد أحرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التلويح بها ، وصفوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم في أرضنا مهرب » . فاشتد هلع لدرقيق ، وعظم جزعه وفزعه ، وخارت قواه المعنوية ، على حين تضاعفت قوة جيش طارق المعنوية بما قدمنا ، وناهيك بما لها من أثر ؛ إنها تقتحم الماقل والحصون ، وتدنك القلاع والسدود ، ولها ما ليس للكتائب والقبائل من نصر مبین

وفي أواخر رمضان سنة ثنتين وتسعين التقى الجمعان بعد أن آمن طارق أولاد غيطشة الذي اعتدى لدرقيق على ملكه ، فسلمه من وراثته الشرعيين ، ومناهم طارق برد ضياعهم إليهم ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة ، وبرز لدرقيق في جنود غفيرة وعدد وفيرة ، وقلوب منخوبة ، ونفوس مقهورة ؛ وطارق في جيش قليلة عدته ضئيلة عدته ، ولكنه ذو قلوب جياشة ، ونفوس وثابة ، إن لقيت ربها فإلى الجنة وإن ظفرت بالحياة فلها الفخر والمنمة ، يحوط لدرقيق ملوكه وجوعه وكهنته

وبطارقته ، وتحقق فوق رأسه بنوده وألويته ، قد ركب فرساً أشهب عليه سرج من ذهب كال بالياقوت والزبرجد ، وعلى رأسه ظلة من الديباج إن وقته وهج الشمس ؛ فلن تقيه لهب الحرب ، وفي قديمه خفان من الذهب المرصع أما طارق وجنوده فبرزوا عليهم اللأم والزرذ ، وفوق رؤوسهم العمام البيض وبأيديهم القسي ، قد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح

التقى الجمعان قبيل شدونة ، وحى وطيس الحرب ، واشتد أوارها ، واشتعلت نارها ، وإذ رأى طارق لتدريق هجم عليه هجمة الأسد المصور ، وانقض أصحابه معه انقضاض البزاة والنسور ، وأعملوا السيوف ؛ حتى تحاذلت عنه ميمته وميسرته ، وكان قائداها ابني غيطشة ، وتفرق من حوله ، وبقي في شزيمة لا تصد عنه عادى المنون ، وتخلص إليه طارق ، فضربه ضربة أطاحت رأسه ، وأطاحت مع رأسه عرشه ، فلما رأى المخلصون له من جيشه مصرعه ، ناروا واستبسلاوا ، فجنت النفوس ، وتطارت الرؤوس ، وتجلدوا على ذلك أياماً انتهت بالفتح المكين والنصر المبين ، وتابع طارق الفتح ، والمدائن تفتح له صدوراً بعد تمنع ، وتسلم له عذارها بعد تأب قاصد وتدل ؛ حتى وصل إلى قرطبة فدخل فيها ، واستولى على نفائس لا يبلغها الوصف وذخائر لا يقدرها الحصر ، ومنها بعث البعث لفتح المدن والحواضر : كالكفة وغرناطة ، وسار هو إلى طليطلة ، فلم يكن يقف في طريق تلك البعث إلا بغاث الطير ، لا تلبث أن ترى الحمام فتطير

ذلك حديث الفتح ، لا يقلل من أهميته أو يحد من عظمته أن نرى تلك الدولة قد دالت أيامها وعادت سيرتها الأولى ، وذلكم طارق بن زياد البطل الخالد في القلوب وحسبه بحب القلوب خلداً ، الماجد في التاريخ ، وأعظم بحديث التاريخ مجدداً ، الحميد الأيثار ، ومن يستحق دون المؤثر حمداً ، القوى بسياسته وفتحه ، ومن أعظم من السياسى الفاح أيدا . ذلكم طارق يستقبل أميره الناقم عليه بعد أن كلفه جليلاً فأنجزه ، وأعد له خطير من الأمر فأنفذه ، وأعطاه لواء ضميماً فعززه ، يستقبله لا في صلف المتفخر أو زهو المنتصر ، بل في تواضع وهو المستلم الدارع ، وفي خضوع وهو قائد الجيش اللجب وذو الفوز الساطع ، وفي قناعة ولو أراد لكان الطامح

الطامع ، وكانني ببن نصير خشي أن يزدهي طارقاً نصره ، فيشق عصا الطاعة ،
ولكن طارقاً كان الجندى الذليل والقائد العظيم ، وما أشبه موقفه هذا بموقف
قائد المسلمين الأول خالد بن الوليد حينما عزله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي
الله عنهما عن إمارة الجيش فرجع إلى صفوف الجند :

يقوده حبشى في عمامته ولا تحرك مخزوم عواليها

بل كان الجندى الطيع لرئيسه الذى كان من هنية مرءوسا ، وصار تابما
وكان من قبل متبوعا ، وعاد مأمورا ومن لحظة كان أمرا ، كذلك كان طارق
الجندى المجهول إذ أصبح لموسى الجندى الشديد الطاعة ، وصارنا لا نعلم من أمره
بعد أن تم الفتح على يديه ويدي موسى بن نصير إلا أنه عاد إلى الشام ، وبهامات ،
ونحنم كلمتنا تلك بأبيات من شعره إن فاتها حسن المطلع فحسبها نبل المتبع ، وإن
تعدتها روعة القريض فلها بقائلها المجد العريض .

ركبنا سفينا بالمحاز مقيرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بمنجاة إذا ما اشتبهنا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدر كنا الذى كان أجدرنا
عبد العظيم على قنارى

مقابس من كتاب معجم الأرباء

لياقوت

للمؤلف عبد الخالق عمر

الأستاذ بدار العلوم

أقول مقابس وأخالف القائلين : مقتبسات ، ذلك أنهم يقولون : ما جرى على اسمي الفاعل والمفعول مما بدى بيمين زائدة فقياسه التصحيح للمذكر إن كان عاقلاً وللمؤنث إن كان غير عاقل ، واستثنوا من ذلك ما جاء من كلام العرب مكسراً مثل : ميمون ومشثوم وميسور ، إلى ذلك مما يكون سبع كلمات أو يزيد ، ولست أدري وربك ما هذا التحكم الصرفي بمد أن جاء هذا العدد مجموعاً جمع تكسير ، وربما قالوا : إنه جاء في الشعر والضرورة أساغته ؛ ولكن مراضع جاءت في كتاب الله الكريم ، وجاء في منشور العرب مطالبق ، وإذن فلا ضرورة لهذا الفرض الصرفي ، وبهذه المناسبة أستطرد لذكر أفعال إذا أسندت دلت على قيام الحدث بالسند إليه من غير عمل منه ولا تأثير له في غيره مثل : اخضر وما مثلها من أفعال الألوان ومثل : غص وشل وشرق فأقول : إن مثل هذه الأفعال ليس لنا أن نبنيها للمفعول فإن وجودها في الفاعل لم يكن من غيره ، ومثل هذا فاعل اصطلاحاً لا حقيقة ، والبناء للمفعول يقتضى مؤثراً في المفعول ، وهذه لا مفعول لها تقتضيه فأولى بنا أن نجعلها في كل استعمال لها مبنية للفاعل إلا إذا كانت متعدية . ولعل مصيب فيما قلت والله أعلم بالصواب

رجوع القول الى معجم الأرباء

كنت أسلفت القول في ذكر طائفة من الشذاذ في اللغة المتعمرين فيها ، وهاتذا أتبعه بذكر أمثلة أخرى وأبتدى بذكر :

أحمد بن محمد بن ثواب

أحمد بن محمد بن ثواب بن خالد الكاتب أبو العباس ، قال محمد بن إسحق النديم : هو أحمد بن محمد بن ثواب بن يونس أبو العباس الكاتب ، أصلهم نصارى ، وقيل إن يونس يعرف بلبابة وكان حجاجاً ، وقيل : أهم لبابة ، ومات أبو العباس سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقال الصولي : مات في سنة ثلاث وسبعين ، قال : وحدثني أبو سعيد وهب بن إبراهيم بن طازاذ قال : كان بين علي بن الحسين وبين أبي العباس بن ثواب منازعة في ضيعة فاجتمعا في مجلس بعض الرؤساء وأحسبه عبيد الله بن سليمان ، فردد علي بن الحسين مناظرة أبي العباس إلى أخيه أبي القاسم ابن الحسين فناظر أبا العباس فأقبل أبو العباس يهأرّه ويطنزه ^(١) ، وقال في جملة قوله : من أنتم ؟ إنما نفقتم بالبذينة ^(٢) ، قال : فالتفت علي بن الحسين إلى صبي كان معه كأنه الدنيا للقبلة فأخذ يده وقلم قائماً في موضعه وكشف عن رأسه وقال بأعلى صوته : يا ممشرك الكتاب قد عرفتموني وهذا ولدي من فلانة بنت فلان الفارسي وهي منى طالق الحرج ^(٣) والسنة على سائر المذاهب إن لم يكن هذا الشرط الذي في أخذعي شرط جده فلان الزين ، لا يكفي عن جد ابن ثواب . قال : فاستخذل أبو العباس ولم يجر جواباً ولا أجرى بعد ذلك كلاماً في الضيعة وسلمها من غير منازعة ولا محاورة

قال : وكان أبو العباس من الثقلاء البغضاء وله كلام مدون مستهجن مستثقل ، منه : عليّ بماء الورد أغسل في من كلام الخاسم ؛ ومنه : لما رأى أمير المؤمنين الناس قد تدارسوا وتداولوا وترنموا وتذوددوا تدسقن ^(٤)

(١) يسخر ويهزأ ، وبابه نصر

(٢) نفقتم : ذاع صيكم ، والبذينة : التشف وسوء الحال

(٣) أي الحرمه

(٤) حاولت جهدي أن أوفق إلى معاني هذه الكلمات وقلبتها على وجوه من النطق ، بفرض أنها ملحقات بالرأى وبفرض أنها منعوته من كلمتين ، حاولت كل هذا فلم أوفق وما أشبهها بملك الكلمات التي كان بشار يقولها فإذا أخرج وشغل قال : اسم حمار أو جارية عندي

ولابن ثوبة أخبار كثيرة تؤيد ذكره بين أسماء الشذاذ الذين نذكركم، منها ما يرتبط بالألفاظ، ومنها ما يرتبط بالمعاملة؛ ونكتفي بذكر ما ذكرنا، ونأتي على طرف من أخلاقه ومعاملاته نقيين منها ما نريد إثباته له

قال الصولي: كانت بين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير وبين العباس أحمد ابن محمد بن ثوبة وحشة شديدة لأسباب، منها أشياء جرت في مجلس صاعد في آخر أيامه، قد حدثني رشيق الموسوي الخادم — وما رأيت خادماً أعقل منه ولا أكتب يداً — قال: كنا في مجلس صاعد فسأل عن رجل، فقال أبو الصقر: قد كان أتي — يريدني — فقال ابن ثوبة: في الخراء. فسمها، فقال أبو الصقر: كيف تكلم من حقه أن يشد ويحد؟ فقال ابن ثوبة: من جهلك، أنك لا تعلم أن من يشد لا يحد، ومن يحد لا يشد. ثم ضرب الدهر من ضربه، فرأيت ابن ثوبة قد دخل إلى أبي الصقر بواسط، فوقف بين يديه ثم قال: أيها الوزير «لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين». فقال له أبو الصقر: «لا تريب عليكم» يا أبا العباس، ثم رفع مجلسه وقلده طساسيج^(١) بابل وسورا وبربما، فضاءف وزاد في الدعاء له، فما زال والياً إلى أن توفي في سنة ثلاث وسبعين ومائتين. هكذا ذكر الصولي والأول منقول من كتاب محمد بن إسحاق وهذا أولى بالصواب قال الصولي: وحدثني الحسين بن علي الكاتب قال: كان أبو العيينة في جملة أبي الصقر، قال: وكان يماذي ابن ثوبة لمعاده أبي الصقر، فاجتمعا في مجلس بمقب ما جرى بين أبي الصقر وبين ابن ثوبة في مجلس صاعد فتلاحيا، فقال له ابن ثوبة: أما تعرفني؟ قال: بلى أعرفك: ضيق المطن، كثير الوسن، قليل الفطن، خار^(٢) الدقن، قد بلغني تمديك على أبي الصقر؛ وإنما حلم عنك لأنه لم ير عزاً فيدله، ولا علواً فيضعه، ولا حجراً فيهدمه؛ فماف لحك أن يأكله، وسهك^(٣) دمك

(١) الطساسيج (جمع طسوج): الناحية

(٢) خار: من خريخر لوجهه، كناية عن الذل والضعف

(٣) سهك الدم: خبث ريحه

أن يسفك به ، فقال له : اسكت ، فأتساب اثنان إلا غلب الأملهما . قال أبو العيناء :
فلهذا غلبت بالأمس أبا الصقر فأسكته

حدثنا أبو العباس التميمي : حدثنا جحظة في أمالية قال : حضرت مجلس
أبي العباس ثعلب وعنده جماعة من أصحابه وحضر أحمد بن علي المادرائي فسأله عن
أبي العباس بن ثوبة وقال له : متى عهدك به ؟ فقال : لا عهد ولا عقد ولا وفاق
ولا ميثاق ، فقال له ثعلب : عهدي بك إذا غضبت هجوت فهل من شيء ؟ فأنشد

بني ثوبة أنتم أنتمقل الأنم جتمت ثقل الأوزار والتخم
أهاض حين أراكم من بشامتكم على القلوب وإن لم أوت من بشم^(١)

كم قائل حين غاظته كتابتكم لو شئت يا رب ما علمت بالقلم
فقال ثعلب : أحسنت والله في شعرك وأسأت إلى القوم . وعن أبي الفرج
الأصبهاني حدثني أبو الفضل العباس بن أحمد بن محمد بن ثوبة قال : قدم البحري
النيل على أحمد بن علي الاسكافي مادحاً له فلم يشبهه ثوباً يرضاه بعد أن طالت مدته
عنده فهجاه بقصيدته التي يقول فيها :

ما كسبنا من أحمد بن علي ومن النيل غير حمي النيل^(٢)
وهجاه بقصيدة أخرى أولها :

قصة النيل فاستمعوها محجابه ...

فجمع إلى هجائه إياه هجاء بني ثوبة وبلغ ذلك أبي فبمث إليه بألف درهم
وثياباً ودابة بسرجهما ولجامها فردده وقال : قد أسلفتكم إساءة فلا يجوز معها
قبول صلتكم ! فكتب إليه أبي : أما الإساءة فمغفورة والمعدرة مشكورة والحسنات
يذهبن السيئات ، وما يأسو جراحك مثل يدك ، وقد رددت إليك ما رددته عليّ
وأضعفته فإن تلافيت ما فرط منك أثبتنا وشكرنا وإن لم تفعل احتملنا وصبرنا .
فقبل ما بمت به وكتب إليه : كلامك والله أحسن من شعري ، وقد أسلفتني

(١) أهاض : تعترى الهیضة : وهي قيء وكره وإسهال ، وهذا مايسمونه « الكورة » .

بشامتكم : ثقلكم . البشم : التخمة

(٢) النيل (غير نيل مصر) : بجهاث بغداد

ما أخجاني ، وحمّلني ما أتقاني وسيأتيك ثنائي . ثم غدا عليه بقصيدة أولها :
ضلال لها ! ما ذا أرادت من الصد ؟

وقال فيه بعد ذلك :

برق أضواء المعيق من ضربه

وقال فيه أيضاً :

إن دعاء داعي الهوى فاجابه

فلم يزل أبي يصله بعد ذلك ، وتتابع بره لديه حتى افترقا
ولابن ثوابة نثر جيد ، منه : من حق المكاتبة أن يسبقها أنس وينعقد قبلها
ود ، ولكن الحاجة أعجلت عن ذلك ، فكتبت كتاب من يحسن الظن إلى من يحققه
ومن فصل له إلى عبيد الله بن سليمان : لم يؤت الوزير من عدم فضيلة ، ولم
أوت من عدم وسيلة ، وغلة الصادي تأتي له انتظار الورد وتمجل عن تأمل ما بين
الندير والواد ، ولم أزل أترقب أن يخطرني ياله ترقب الصائم لفطره ، وأنتظره انتظار
الساري لفجره ، إلى أن برح الخفاء وكشف النطاء وشمّت الأعداء ، وإن في تخافي
وتقدم المقصرين لآية للتوسمين والحمد لله رب العالمين .

وله توقيع ظريف كتبه في إحدى الرقاع التي قدمت له فقد روى هلال ابن
المحسن في كتاب الوزراء ما يأتي : حدث علي بن سليمان الأخفش قال : ذكر لي
المبرد أنه كان في يوم نوبة له عند أبي العباس أحمد بن محمد بن ثوابة حتى دخل عليه
غلامه ، وفي يده رقعة البحرى فقرأها أبو العباس ووقع فيها توقيعاً خفيفاً وأمر
بإصلاحها فأصلحت وأعيدت إليه . قال المبرد : فرى بها إلى فاذا فيها :

اسلم أبا العباس وأبقى فلا أزال الله ظلك

وكن الذي يبق لنا ونموت حين نموت قبلك

لى حاجة أرجو لها إحسانك الأوفى وفضلك

والمجد مشروط عليك قضاءها والشرط أملك

فلئن كفيت ملهما فمثلهما أعددت مثلك

قال : وإذا قد وقع أبو العباس : مقضية والله الذي لا إله إلا هو ، ولو أتلفت

المال وأذهبت الحال ، فقل — رعاك الله — : ما شئت منبسطاً ، وثق بما أنا عليه .
لك منبسطاً إن شاء الله تعالى .

هذه طائفة من أخبار ابن ثوبة تنبئ في الجملة عن شيء من حاله التي أشرت إليها ، كما أنها تدلنا على أن له من القول البالغ والنثر العظيم مقداراً يعد به في زمرة الكتاب المدودين .
وكما حدثتنا هذه الشذرات عن هذا فإنها أيضاً تعرفنا أن أناساً كثيرين يحسدونه على هذا النوع من النبوغ ، ويخيل إلى أن خلق المنهجية الذي كان يتمسك به والتطرف في الكلام يفض عنه من حوله ؛ والحق أن الخروج عن المألوف وجفاف الطبع حائل بين الشخص ومجالسيه ، وإن شئت فقل وأقاربه وأهله فإذا انضم إلى ذلك وضاعة نسبه وصغار أصله كانت الطامة ؛ ومن هذا الذي ذكرت يتضح رأي فيه كما يدور في خلدي أنه كاتب أديب فحسب بمعنى أنه بعيد عن الحياة الاجتماعية في عصر يتماظم فيه كل فرد بدراية الأدب والعلوم العربية ولو إلى درجة قليلة وترى هذا يدور في نثرهم ونظمهم وحديثهم فن لم يمانعهم بر نفسه في واد بعيد عن معاصريه ولا يسمعه إذ ذاك إلا أن يظهر بمظهر التكبر على الناس المتعالي عليهم ومن هنا نجى الظنون في الشخص تترى

وقد دعاني إلى كتابة ما سلف أن كثيراً من الناس صغروا من قدره وشوخوا من عقله وجملوه طفلاً لا يبي بما نسبوه إليه من البعد عن أحوال الحياة وصوروه رجلاً مضحكاً لما فيه من بله وجهل فاضحين . وإليك شيئاً مما حدثوا به عن ابن ثوبة ، قال ياقوت : قال أبو حيان في كتاب الوزيرين^(١) : حدثنا أبو بكر الصَّيْمَرِيُّ قال : حدثنا ابن سمكة قال : حدثنا ابن محارب قال : سمعت أحمد بن أبي الطيب يقول : إن صديقاً لابن ثوبة الكاتب أبي العباس يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم : إنك بحمد الله ومنه ذو أدب وفصاحة وبراعة فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسي وعلم الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء ، وقرأت أقليدس

(١) الوزيران : ابن عباد وابن العميد

وتدبرته. فقال ابن ثوبة: وما أقليدس ومن هو؟ قال: رجل من علماء الروم يسمى بهذا الاسم وضع كتاباً فيه أشكال مختلفة تدل على حقائق الأشياء المألومة والغيبية يشحذ الذهن ويدقق الفهم ويلطف المعرفة ويصفي الحاسة ويثبت الروية (وما زال أبو عبيدة يرغبه حتى خضع لقوله وأحضر له رجلاً اسمه قويرى يعلمه ذلك) قال ابن أبي الطيب: فكنت لابن ثوبة كتاباً أستمع فيه عن الحادث (وهنا ذكر ياقوت كتاب أبي الطيب ورد ابن ثوبة عليه. والرسالة الأولى قصيرة والرد طويل شرح فيه ابن ثوبة حاله مع قويرى النصراني ثم مع آخر مسلم يدعى أبا يحيى ولم أر فائدة كبرى في الإتيان بنصها غير أنى أورد منها شيئاً يجلو لنا موقف ابن ثوبة الذى من أجله رمى بالجهل والنباوة) وذلك عند ما اجتمع به قويرى في المرة الأولى وأبو يحيى في الأخرى

يقول ابن ثوبة في وصف قويرى: فأنانى (الضمير لأبي عبيدة) بشيخ دبرانى^(١) شاخص النظر منتشر عصب البصر طويل مشذب^(٢) محزوم الوسط متزمل في مسكة^(٣) فاستعذت بالرحمن إذ زغنى الشيطان... ثم يقول:

قال (يريد قويرى): فأحضرنى دواة وقرطاساً، فأحضرتهما فأخذ القلم ونكت نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصرى وتوهما طرفى كأصغر من حبة الدرة فيزهر^(٤) عليها من وسائسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله وأقبل على وقال: أيها الرجل، إن هذه النقطة شيء لا جزء له، فقلت أضللتنى ورب الكعبة؛ وما الشيء الذى لا جزء له؟ فقال: البسيط، فأذهلنى وحيرنى وكاد يأتى على عقلى لولا أن هدانى ربى لأنه أنانى بلفظ ما سمعتها والله من عربى ولا عجمى، فقلت أنا: وما الشيء البسيط؟ فقال: كالله والنفس، فقلت له: إنك من الملحدين؛ أتضرب بالله الأمثال والله يقول: «فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون»، وأعوذ بالله من الحين وأبرأ إليه منكم وبما تاجدون والله ولى أمير المؤمنين إني برى مما تشركون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ثم قال، فقال لى آخر من

(١) نسبة إلى الدير

(٢) مهذب

(٣) قطعة من جلد

(٤) تكلم بلا صوت

الجالسين أن عندي مسلماً يتقدم أهل هذا العلم ، فقلت أنتي به ، فأناني برجل
 قصير حداح (١) آدم مجدور الوجه أخفش (٢) المينين أجليح (٣) أنطس (٤) سيء النظر
 قبيح الزبي ... إلى أن قال يحدث هذا الجديد المكشي بأبي يحيى : إن النصراني
 نقط نقطة أصغر من سم الحياض وقال لي إنها معقولة كريك الأعلى ، فوالله
 ما عدا فرعون وكفره وإفكه . قال أبو يحيى : إني أعفك من النقطة لعن الله
 قويرى ، وما كان يصنع بالنقطة ؟ وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة ؟ فقلت استجهلني
 ورب الكعبة ، ونازعتني نفسي معالجته بغليظ العقوبة ثم استعطفني الحلم إلى الأخذ
 بالفضل — وما جئ لهذا الثاني بما طلب من الأدوات خط خطأ وقال لي غير
 متعاطف إن هذا الخط طول بلا عرض ، فتذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له :
 قاتلك الله أندرى ما تقول ؟ تعالى صراط ربي المستقيم عن تحطيطك وتشبيهك
 وتحريفك وتضليك إنه لصراط مستقيم وإنه لأحد من السيف وأدق من الشعر
 ثم قال بعد لومه وتأنيه وقذفه بهجر القول : أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة
 ومما تدل عليه وترشد إليه إني برى من الهندسة ومما تسرون وما تعلمون ولبئسما
 سولت لك نفسك أن تكون من خزنتها (جهنم) بل من وقودها وإن لك فيها
 لأنكلا وسلاسل وأغلالا وطعاما ذا غصة — يقول بعد ماسبق : ثم أخذت قرطاساً
 وكتبت بيدي يمينا آليت فيها بكل عهد مؤكد وعقد مردد ويمين ليست لها
 كفارة أنى لا أنظر في الهندسة أبداً ، وأكدت بمثل ذلك على عقبي وعقب عقبي
 لا تنظروا فيها ولا تعملوها ما دامت السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة
 لميقات يوم معلوم اه بتصرف

قال ياقوت في آخر ترجمة ابن ثوبة — وفي هذا القول يبدى رأيه في ابن ثوبة
 متصوراً أن كل ما جاء في الرسائلين سالفتي الذكر من أوضاع الكاتبين قال :

(١) قصير

(٢) سيء البصر نهراً

(٣) انحسر شعره عن جانبي رأسه

(٤) صفة للأنف الذي ليس دقيقاً

قال عبد الله الفقير إليه مؤلف هذا الكتاب : لا شك أن أكثر ما في هذه الرسالة مقتعل مزور وما أظن رجلاً مثل ابن ثوبة — وهو بمكانة من العلم بحيث تاقى إليه مقاليد الخلافة ، فيخاطب عنها بلسانه القاصي والداني ، ويرتضيه العقلاء والوزراء بحيث لا يرون له نظيراً في زمانه في براعة لسانه ، تولى كتابة الإنشاء السنين الكثيرة — أن يكون منه هذا كله

ثم قال : فأما ما تقدم من حديث ابن ثوبة فهو غاية في التجلف ، والرجل كان أجل من ذلك ، وإنما أتى إما من جهة أحمد بن أبي الطيب لأنه كان فيلسوفاً ، وكان ابن ثوبة متمجعراً كما ذكرنا ، فأخذ يسخر منه ليضحك الممتضد ، فإن أحمد بن الطيب كان من جلساء الممتضد ؛ وإما أن يكون أبو حيان جرى على عادته في وضع ما أكثر من وضعه من مثل ذلك والله أعلم

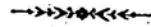
عبد الظاهر عمر

في التاريخ

فؤاد الأول

بقلم المتولى قاسم

المدرس بمدرسة محمد علي الملكية للبنات



أهدى إلى نادى دار العلوم هذا المؤلف التاريخى عن حياة المغفور له الملك فؤاد الأول ، وهو من تأليف الأساتذة : عبد العزيز الأزهرى ، وعلى عبيد الله سرحان ، ومحمد مجاهد — المدرسين بالمدارس الأميرية — وقد صدر الكتاب بكلمة ماثورة عن جلالة المترجم له ، عما لدراسة الشعب تاريخ أسلافه وأعمال أبطاله من بالغ الأثر فى شجذته وتوجيه عزيمته إلى إدراك المثل الأعلى فى حياته وبعد هذه الدرة الثمينة كلمة الإهداء من المؤلفين إلى صاحب الجلالة الملك فاروق الأول . وهى طاقة شذية من زهرات ندية زفوها فى ولاء وإخلاص إلى ألمع كوكب فى سماء مصر ، وأندر غصن فى الدوحة المحمدية العلوية — وأعقبوها كلمة أخرى فى بيان الغرض الذى حدا بهم إلى تخيير هذه الشخصية العظيمة واختصاصها بالبحث والترجمة ، والكشف عن مبالغ الجهد الذى بذلوا متوالياً سبعة عشر شهراً ، يفوصون بين الحجج الوثائق والمذكرات والكتب الشرقية والغربية ، حتى جمعوا مواد كتابهم ، ومزجوا عناصرها وألفوا بينها فى نسق جميل ونظام بديع ؛ فجاء الكتاب ناطقاً بمجهودهم شاهداً بفضلهم ، نافعاً لأجل النفع لمن يسمعه الحظ بالاطلاع عليه

أما الخطة التى انتهجوها لأنفسهم فى وضع الكتاب فهى التقديم لكبريات الحوادث بظروفها وبواعثها ، حتى تستقر فى نفس القارئ واضحة باقية الأثر ، ثم التعقيب عليها بنتائجها البازرة ؛ وربما أصدروا أحكاماً برأيهم فيها فى رفق وهدوء ، والمؤلف المعاصر ذو فضل على غيره فى رواية الحوادث وإبرازها واضحة فى معرض دواعيها وأسبابها ، وهى لا تزال عالقة بالأذهان ، ظاهرة الارتباط

بعضها ييمض ؛ فهم بذلك قدموا للجيل الناشئ ، ومن بعده مادة خصبة للمعرفة والموازنة والحكم القائم على أساس متين من بحرى الصدق والصواب .

أما أسلوب التأليف فقد التزموا فيه دقة التقسيم والتبويب ، فضموا كل شكل إلى شكله ، وزادوا بين الطوائف ، وجملوا لكل طائفة من بحوثهم عنواناً كبيراً يضم أشتاتها ويؤلف بينها ؛ مع الافاضة التامة حتى ليخيل إلى أنهم كانوا يريدون أن يخصصوا كل عنوان بكتاب خاص يجمعه بين دفتيه ؛ وكأني بهم قدروا لكتابهم حداً يريحون القلم عنده ، فأقلت زمامه من أيديهم مرآت ، وذلك لما يمتاز به الكتاب من الخصب في كل ناحية طرقوها ؛ وفي الكتاب من أجل ذلك وغيره لذة للمقل ولذة للنفس ، وإرضاء لماطفة الإعجاب بالبطولة وجميل الصفات ، وإشباع للروح الوطنى ، وشجذ للمزائم ؛ حتى إنه ليستأثر بالقارى ويغريه بالتبصير والاستقصاء ، فلا يشبع منهم أو يفضى به إلى الختام ؛ وإنى لأشهد لقد قضيت وقتاً سعيداً بين أفيائه ونسائمه أغذى النفس بآيات البطولة وأعجب بروائع الأخلاق المالية ، وألمس دلائل الإخلاص للوطن ، وأشهد مبلغ حذب الملك المغفور له وعطفه على هذا الشعب المصرى الذى كان أكبر أمانيه أن يراه عزيز الجانب مرفوع الرأس بين الدول العظمى ، مساهماً بأوفر نصيب في التقدم الإنسانى العالمى

أما الأسلوب الكتابى الفنى فيمتاز بالسهولة والروعة ووضوح المذهب واستنارة السبيل ، كأنه محدث بارع يخلب لب سامعيه ويجتذب انتباههم ، ويملك إعجابهم ؛ على أن فيه هنات قليلة ، تنقص من جماله الفنى ، ولكن لا تنقص من قيمته التاريخية ، ولولا أن حضرات المؤلفين أسانذة فى اللغة العربية لأغفلنا الإشارة إليها

والكتاب فى الحقيقة تاريخ شامل لهضة مصر واتماشها وتقديمها علمياً وسياسياً واجتماعياً وإنسانياً فى الفترة التى اقترنت بحياة المترجم له ؛ وقد كان جديراً به أن يسمى (مصر فى صدر القرن العشرين) لولا ما كان لذلك الملك العالم ، والسياسى المحنك ، والمصلح العظيم ، من عميق الأثر وحسن التوجيه فى

كل نواحى التقدم المصرى .

وقد قامت على إخراجها مطبعة مصر على ورق صقيل فى خمسين وأربمئة صفحة من القطع المتوسط ، بحروف دقيقة واضحة جميلة ، على الصور فى كثير من صفحاته ؛ فجاء غاية فى الدقة وآية فى الإتقان ، وخير برهان على ما امتازت به مطبعة مصر من جودة العمل وإحكامه

وهو مقسم ستة أقسام كبيرة :

١ - الأسرة المحمدية العلوية فى نحو ستين صفحة ، وهذا القسم يتجلى بأشهر

صفات الملك ، وطريقته فى تربية ولى عهده الفاروق و . . .

٢ - القسم العلمى فى أكثر من تسعين صفحة ، وهو يزدان بموامل الثقافة

لدى الملك ، وبيان الجماعات العلمية التى عنى بها واتعمشت تحت ظل رعايته أميراً وملكاً ، والنهضة العامة فى وزارة المعارف والجامعة المصرية

٣ - القسم السيامى فى ثلاثين ومائة صفحة وهو يسجل حالة مصر قبيل

الحماية وفى أثناءها ، ويجلو حوادث الثورة المصرية ، وإعلان الاستقلال ، ووضع الدستور ، وفيه عرض لأعمال الوزارات المتتابعة فى هذه الفترة التى انتهت بالمعاهدة ، وفيه موازنة بينها وبين معاهدة الحديدية ، ومعاهدتى العراق وسورية

٤ - القسم الدينى فى نحو خمسين صفحة ويتجلى فيه مبالغ احترام الملك

للدين ، ورعايته للأزهر الشريف ، وعطفه على مسلمى العالم الخارجى ، وسخائه على الجماعات الخيرية ... الخ

٥ - قسم الرحلات الملكية فى أربعين صفحة ، وفيه سجل جامع لجميع

الرحلات الملكية وأثرها العظيم فى مصر وأوربة ، وبيان لتنافس الشعب فى إرضاء الملك بالأعمال النافعة لأبناء الوطن

٦ - العصر الذهبى فى ستين صفحة وهو جامع لألوان الرقى المصرية من

زراعية وتجارية وصناعية ، وصحية ورياضية ، وصحافية ... الخ

وهو مذيل ببيان للمراجع العربية والإفرنجية يشمل صفحتين كاملتين - وهذا يدل على مقدار عناية المؤلفين بهذا الكتاب حتى جاء مرجعاً نافعا للباحثين من مؤرخ وصحفي وأديب وسياسي واجتماعي، وفيه خير معوان للزعيم المصلح، إذ يريد أن يستوحى الماضي حتى يأمن العثار، ويتوقى مواطن الزلل، ويتوخى سبيل الحكمة والرفق، فيصل بالشعب إلى سواطن العزة والسعادة

فإلى حضرات المؤلفين تقدم أطيب الثناء على مجهودهم الموفق، وجزيل الشكر على هديتهم الجميلة النافعة، وإلى الله تعالى نرفع أكف الدعاء وخالص الدعاء أن يجعل لكتابهم أوفر قسط في تربية الجيل الناشئ والأجيال المقبلة، وحفزهمهم إلى بلوغ مراتب العظمة ومنازل الكمال

المترى قاسم

ابن المقفع كتاب الأستاذ عبد اللطيف حمزه

بقلم محمود الطنبجي

الدرس بالدرسة الخديوية

إخالك تعترف معي بأن ابن المقفع شخصية كبيرة ، لها أثرها المحمود في الأدب ؛ فليس بغريب أن يُعنى الأدباء يبحث هذه الشخصية ، بل الغريب ألا يفعلوا ويحيطوا الاضطراب والنموض بكثير من نواحي ابن المقفع ؛ لذلك أقبلت على قراءة هذا الكتاب ، شاكرًا للأستاذ عبد اللطيف بحته ومجهوده فيه على كل حال ، سواء اتفقت معه في نظره أو اختلفت ، فإن ذلك لن يضيع مجهوده سدى ، ولن يجعاني أغمطه حقه ، فله من الأدباء حسن المثوبة ومن المتأدبين الثناء الجليل

وفي الحق أن كثيراً من النموض يحيط بحياة ابن المقفع ، ولذلك دأب الكاتب على كشف النموض عنه حتى يظهره كما هو لا كما يتصوره الرواة ؛ فعمد إلى الظان ، ومايل بين بعض الروايات وبعض ، مستخلصاً الحقيقة في لفظ لين وأسلوب سهل

وغاية ما كنت أصبوه وأتمناه أن تكون وقفته أمام بعض النقط أطول مما وقف ، حتى تقرر له بالحسنين : الاستيعاب والتدقيق

مولد ابن المقفع

يكتنف النموض مولده ، وقد تركه الأستاذ غامضاً كما هو ، فالأستاذ الجليل كرد علي في كتابه (أمراء البيان) يرجح أنه توفي وسنه حوالي الستين ، بين عامي

١٤٢ و ١٤٥ هـ ، ويرى أن ولادته تقع قبل عامي ١٠٦ و ١٠٧ هـ كما ذكرت المصادر الحديثة . فكتبت أود أن يقف المؤلف عند رواية البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) التي ذكرها في صفحة ٥٣ حتى نظفر بالحقيقة ؛ لاسيما أنه جمل للبصرة أربعة أطوار ، كان أستاذ الطور الرابع منها في زعمه ابن المقفع . وكان هذا بعد موت واصل بن عطاء عام ١٣١ هـ فكان ابن المقفع كان أستاذ البصرة وسنه حول ٢٥ أو ٢٦ سنة ، وهذا قول لا يقبله العقل بسهولة ، بل قد يرده ؛ فابن المقفع كما يذكر المؤلف وكما يذكر الأستاذ كرد علي ، عاش في أحضان والده بفارس ، وتنقف بالثقافة الفارسية ، ثم رحل إلى البصرة في وقت لانعلمه ، وإذن فمتى تنقف بالثقافة الفارسية ؟ ومتى تعلم العربية وشدا فيها ؟ ومتى تزعم والبصرة كما يقول كانت في هذا الوقت مأججة بالعلم والعلماء ، زاخرة بالأدب والتأدين بكثير فيها الشعراء والشكلمون

فلو أنه حقق رواية البلاذري لساعده على إسناد الزعامة له في سن متقدمة نوعاً تسمح له بالتعلم أولاً ثم بالزعامة ثانياً ، لاسيما أنه يقول في صفحة ٥٦ : « وكان يفد على آل سليمان بن علي بالبصرة رجل من البادية يقال له أبو الجاموس ثور ابن يزيد ... وقيل إنه عن هذا الرجل أخذ ابن المقفع الفصاحة وتأتى ، فصحت سليقته واستقامت عمر بيته ... »

لونه السياسي

أما لون ابن المقفع السياسي فقد أتى المؤلف فيه على آراء أعتقد أنه لو حقق فيها النظر لعدل عنها ونقر منها ، فما قال قبله قائل ولا تصور متصور بأن دعوة تدبر في الخفاء وتدار في السر لقلب دولة من أجل خليفة مجهول ، حتى إذا ما نجحت الدعوة بيعت صاحبها في مفاوضة أناس عليهم يقبلون الخلافة . وهل يمثل أن يشترك المباسيون وبعض الموالى من الفرس في الدعوة سرّاً ، وكلّ يجهل نية صاحبه : فالمباسيون يقصدون بآل البيت أنفسهم ، والموالى يقصدون

بآل البيت العلويين ؛ وتستمر الدعوة هكذا ، حتى إذا جاء وقت المعلن أعلن العباسيون أنهم يعنون أنفسهم ، ويحبس أبو سلمة الخلال السفاح في بيته شهرين من أجل البحث عن خليفة علوي ؛ وهذا حيث يقول في صفحة ٥٩ « فقالوا : نطالب بالخلافة للعلويين ... وبدءوا دعوتهم سرّاً لم يكن يعلم بهم أحد أول الأمر ولكن نقرأ من العباسيين علموا ذلك السر ، وأحبوا أن ينهزوا الفرصة السانحة وخذعواهم عن أنفسهم بهذه الحيلة ؛ وهي أنهم قالوا لهم : إنا داعون مثلكم لآل البيت ، ولكن من هم آل البيت ؟ أما الفرس فيعنون بآل البيت أنهم العلويون وأما العباسيون فيفهمون أن آل البيت هم العباسيون ؛ وظل كل فريق يضم في نفسه ما يفهمه وما يعنيه ، وسارت الدعوة في طريقها السري الذي نعلمه ، حتى تجاوزته إلى طريق المعلن ؛ وهنا أظهر العباسيون أنهم يقصدون أنفسهم بهذا البيت ؛ ورأى زعيم الموالي إذ ذاك « أبو سلمة الخلال » ... أن الدعوة صائرة على ما يكره إلى بني العباس ، فأبطأ أول الأمر في إعلان الخلافة ، وتلكاً بالفعل في مبايعة السفاح ؛ بل إنه حبس السفاح في بيته شهرين ، وحظر على الناس مقابلته ، وطفق في أثناء ذلك يرسل بمض العلويين في الأمر ويطلب إليهم أن يقبلوا الخلافة ... ! » وأنا بعد هذا أترك إلى المؤلف الحكم ، وأترك إليه إعادة النظر في القصة التي حكاهها السمودي ص ٦١ لعله يغيّر ما قال ويمدّل عما رأى

ابن المقفع الطائب

عرض المؤلف في هذا الفصل إلى نظرية أسبقية الشعر للخطابة وللنثر الفني ، وإنه في ذلك متبع لا مبتدع ، ولكنه انحرف كثيراً عن نظرية عميد كلية الآداب الدكتور طه حسين ؛ فهو لم يقصد إلى هذا مطلقاً ، ولم يجعل أي جماعة في الطور الذي يلي بداية عهدها بالوجود تعبر عن عواطفها بالشعر بالاستنتاج الذي ذكره المؤلف في صفحة ١٧٢ ؛ وذكر في هذا الفصل أن خصائص تلاميذ المدرسة

الكتابية الأولى هي خصائص الخطابة ، وذكر الإيجاز فجعله للخطابة أولاً ثم للكتابة تشبيهاً لها بالخطابة في طورها الأول . ولو رجع إلى طائفة من خطب المصر المباسي الأول أو الأموي لتقضى قوله بنفسه ؛ فإكانت الخطب موجزة في هذا المصر ، وما قال أحد قبله بأن من طبيعتها الإيجاز ، فأولى خصائص الخطابة إيراد عبارات كثيرة على معنى واحد ، لتثبيتها في ذهن السامع ، ولإحداث الأثر المطلوب من الخطابة ؛ فيتبين من هذا أن ما عرض له المؤلف — من جمل كل فن من الفنون الثلاثة : الشعر ، والخطابة ، والنثر الفني ، يأخذ خصائص سابقه — يحتاج إلى شيء من التحييص والبحث . فإكان الإيجاز في الكتابة في هذا المصر تبعاً للخطابة

وبعد ، فأشكر للأستاذ ما بذل من جهد ، وما قصد إليه من غاية

محمود الطنبجي

الفهرس

.....	مقدمة	التحرير
١	عبد الاحسان (قصيدة)	: للشاعر محمود حسن إسماعيل
٤	الخيال في الأدب	: للأستاذ أحمد الشايب
١٤	أسس الاصلاح في دار العلوم	: للدكتور على العناني
١٩	علم النفس وصلته باللغة والأدب والاجتماع	: للأستاذ محمد خلف الله
٢٣	الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية	{ سيد قطب
٣٧	الثقافة	: للأستاذ عبد الحميد حسن
٤٣	أسلوب المتنبي	: للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٦١	الفكاهة في الأدب	: أحمد هاشم عطية
٦٩	الوضوح والغموض وطبيعة الأدب	: عبد الباقي إبراهيم
٧٤	نقد الشعر	: فايد العمروسي
٨١	بين الحقيقة والخيال	: للأستاذ عبد اللطيف المغربي
٩١	رجلس (قصة)	: عبد العزيز عتيق
٩٩	الجندي والشباب (قصيدة)	: محمود إبراهيم محمد
١٠٣	ورقة النسيب (قصة)	: محمد سعيد العريان
١٠٩	عظيم دولة الموحدين	: للأستاذ محمود البشبيشي
١١٧	النقد الأدبي قديماً وحديثاً	: حسنين حسن مخلوف
١٢٥	فتح طارق بن زياد بلاد الأندلس	: عبد العظيم على قناوى
١٣٤	مقابى من كتاب معجم الأدباء	: للأستاذ عبد الخالق عمر
١٤٣	فؤاد الأول (كتاب)	: المتولى قاسم
١٤٧	ابن الفقع (كتاب)	: محمود الطنيجي

مَطْبَعَةُ الرَّسَّالَةِ